ليالي القصف السعيدة



سنابل للنشر والتوزيع

الإشراف العام :
د. طلعت شاهين

مدير التحرير :
علـي حامـد

المراسلات :
ص.ب: 22
الحي المتميز - مدينة 6 أكتوبر
جمهورية مصر العربية
Tel.: (+202) 8354069
Mob.: 0122250787
E-mail:
darsanabel@maktoob.com

الكتاب : ليالي القصف السعيدة
المؤلف : محسن الرملي
الطبعة الأولى: يناير ٢٠٠٣
رقم الإيداع : ٣٣٥٨/ ٢٠٠٣
الترقيم الدولي : 2-03-5634-977

لوحة الغلاف : حَزَنَ منْ رأى
للفنان العراقي : خالد كاكي
صورة الغلاف الخلفي:
الرملي أمام شجرة الجرنيكا

الموزع



للنشر والتوزيع
تليفاكس : ٥٧٦١٤٠٠

محسن الرملي

ليالي القصف السعيدة

سنابل
للنشر والتوزيع

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ﴾

قرآن كريم / سورة **الإسراء** / الآيتان ٦٨ ، ٦٩

إذا كان الحاصب : هو الريح المهلكة فى البَر.
والقاصف : هو الريح المهلكة فى البحر.
.. فإلى أين المفر ؟!؟.

المحتوى

كِتاب القَصف

(كولاج سردي)



ليلة كتابة ليالي القصف

حيــن عدتُ من الأندلس إلى بيتي في مدريد قادماً من مظاهرة اشترك فيها أكــثر مــن عشرة آلاف شخص، نظمتها أحزاب اليسار والهيبيون والمثليون الجنسيون والمعارضون للعولمة والمدافعون عن البيئة وحقوق الحيوان.. سرنا فــيها من وسط مدينة قادش، مدينة ألبرتي الذي تمنى أيام كان منفياً أن يكون زهرة في وطنه كي تأكله بقرة من وطنه، أو تقطفه طفلة من وطنه، أو يحمله، على أذنه، فلاح من وطنه، وأن يُدفن في تراب وطنه.. وها أنا الآن منفيٌّ في وطــنه أتمــنى أن أكــون زهرة في وطني.. لأنني مثله أشعر بأنني وحيد بلا وطني.

ســرنا مــن مقهــى ألبرتي وسط قادش حتى قاعدة مورون الأمريكية على شــاطئ البحر المتوسط. لكل جماعة أو حزب أسباب اعتراضه على وجودها، وأنا العراقي الوحيد، وسط هذا الحشد، بلا حزب وبلا جماعة، واعتراضي أنها قــاعدة انطــلاق الطائــرات التــي قصفت بلدي، فكنتُ أهتف بكل شعارات المظاهرة أكثر من غيري، لكنني أردد في قلبي شعاري الخاص وسؤالاً واحداً لإسبانيا، متذكراً ما قدمه لها زرياب العراقي: لماذا نمنحكِ الموسيقى وتمنحيننا القذائف؟.. لماذا؟.

لحظـــتها كنـــتُ أنظر من وراء سياج الحديد وسور الشرطة إلى الطائرات السود الجاثمة بأحجامها الضخمة كديناصورات.. هذه طائرات قد وصلت إلى بلدي وحَطمت جسوراً.. ومتاحف وحدائق ومدارس وبيوتاً، وقتلَت جنوداً كان بعضـــهم أصـــدقائي، وأطفالاً مختبئين مع أمهاتهم في الملاجئ.. هذه طائرات قصفت بغداد وعادت لتحط هنا بطمأنينة على ساحل البحر، بالقرب من عرايا الصـــيف، يسهر على سلامتها عساكر يصعدون بالسلالم ويمسحون مناقيرها، يـــنظفون العلَـــم الأمريكـــي وزجاج مقصورة القيادة من ذرق العصافير غير مكترثيـــن بصـــرخاتنا نحـــن المتظاهرين هنا.. وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام طائـــرة قـــرب الســـياج، أحدق في عيونها وهي تحدق في عينيّ.. كنا نحاور بعضنا بصمت مثل ديكين يتأهبان للتصارع، كنا نحدق ببعضنا، وجهاً لوجه.. وجهاً لوجه، بعداء وأسئلة ووجع مرير.

عـــدت متعـــباً وألقيـــت بجسدي على الكنبة ثم شغلت التلفاز فكانت الأخبار تتحدث عن قصف طائرات التحالف للعراق. كالعادة؛ كان التلفاز يقصفنا يومياً بأخبار القصف، فأطفأته وتناولت الجريدة لأجد فيها إسرائيل تقصف المخيمات الفلســـطينية وجـــنوب لبنان، ألقيتها وخرجت إلى شوارع المدينة. جلست في مقهـــى فوجدت الذين بجواري يتحدثون عن قصف التحالف لأفغانستان. تركت فنجاني على منتصفه ورحت أسير على الأرصفة. مررتُ من أمام دار للسينما فوجـــدت ملصقاتها تعلن عن فيلم جديد حول حرب فيتنام. سارعتُ خطاي ثم دلفـــت إلى مكتبة فوجدت أكثر الكتب مبيعاً (تاريخ القصف) لسفن لندكفيست.. لحظـــتها شـــعرت بـــأن القصف يحاصرني.. لا مفر من القصف.. القصف.. القصف.. في كل الأمكنة، في كل الأزمنة، من كل الجهات، من كل الأشياء.. وكـــل شـــيء قصف، فاشتريت كتاب التاريخ وعدت أدراجي إلى دار السينما،

شـــاهدتُ فـــيها فيلم حرب فيتنام وقنابل النابالم تحرق الأطفال العراة والحقول الخضـــراء. عـــدت إلـــى المقهى، طلبتُ فنجان قهوة آخر وشاركت الآخرين حديـــثهم عـــن قصف التحالف لأفغانستان ثم رجعتُ إلى البيت. قرأت الجريدة التـــي تصـــف مقـــتل أطفال الحجارة الفلسطينيين تحت قصف طائرات ف١٦ الإسرائيلية بأنه: موت أثناء تبادل إطلاق النار. فهل قذفوا الطائرات بالحجارة فكـــان مـــن حق الطائرات أن تدافع عن نفسها؟.. ثم فتحت التلفاز واستسلمت لأخبار القصف حتى منتصف الليل.

كنـــت أرى كل شيء بمثابة قصف؛ الإعلانات وبرامج المسابقات وفضائح الممثليـــن وقُـــبل العشاق والهواء المتسلل من النافذة. جسدي مُنهك لكن ذهني بكـــامل يقظته يطرد عني كل بوادر النعاس.. وهكذا واصلت اجتراري لأخبار القصـــف، قراءاتـــي وذكرياتـــي عـــنه، الـــتاريخ والأرقام والموتى والأغاني والتـــبريرات وفـــراق أحبة ودم ومدافن وحرائق ومنافي وحديد وكلمات ونار وتكسير عظام ونظرات شرهة وأخرى دامعة.. كل شيء هو قصف، أو تبادل قصـــف، تـــبادل النظرات، تبادل الكلمات/الشتائم، الصراخ، النصائح، الصفع، الأبـــوة، الأخوة، المحبة، الحقد، الاغتصاب أو ممارسة الحب، فرض وجهات الـــنظر، السير في الشوارع، قرع الأرصفة بالأحذية، الحديث، الأكل، التعليم، الســـفر، الرســـائل والكـــتابة حيث قصف الأوراق بالحبر والتفكير.. ياه.. ما أصعب التفكير!، التغوط، الانتظار، النوم، الموت. وجدتني أرى كل شيء في هـــذا العـــالم عبارة عن قصف، فظننت بأنني قد عثرت، على الرؤية أو النافذة التي أستطيع عبرها فهم هذا العالم.. فهل بمستطاع أحد أن يفهم العالم وإن ظن ذلـــك؟.. لا أحـــد على الإطلاق.. لا أحد.. إلا أن أي كائن سيتمكن من تكوين رؤيـــة مـــا، أو اتخاذ زاوية للنظر إليه.. وكل شيء يصلح لذلك، أعرف كُتَّابا

آخرين تناولوه عبر مفردات أخرى كالحدود والمراحيض والمؤخرات والفروج والغائط والحب والحرب والسفر واللغة.. أي أنك تستطيع أن تختار أية مفردة كالزبالة مثلاً فتروح تبحث عن معانيها اللغوية وتاريخها وطرق التعامل معها عند مختلف الشعوب وذكرياتك عنها وما قاله الآخرون.. عندها ستجد بأن كل العالم قائم على طبيعة تشكيلات الزبالة.. وهكذا أية كلمة أخرى؛ اخترها وانشغل بها، اجمع المعلومات والذكريات والآراء والأقوال والتحليلات ستجد بأنك قد كونت رؤية ما عن العالم وتظن، مثلي، بأنك قد توصلت إلى فهمه.. ركز جهودك في شيء واكتب كتابك عن شيء، اشغل فراغك فالسعادة ألا تجد وقت فراغ كما يقول همنغواي، وأوهم نفسك بالمعنى.. فلو تناول كل إنسان هذا العالم عبر مفردة واحدة وكتب كتابه ربما سنستطيع جمع هذه الكتب معاً.. ألهذا قال بورخيس بأننا جميعاً نكتب كتاباً واحداً؟. سنضم هذه الكتب في غلاف واحد، شظايا رؤى كشظايا مرآة محطمة، نلصقها ببعضها ونكون مرآة هائلة واحدة، الرؤية الكبرى، مرآة ترينا وجه الحقيقة عبر اجتماع أجزاء حقيقاتنا الفردية أو المفردية تماماً كحكاية العميان مع الفيل؛ الذي لمس أذنه قال بأن الفيل بطانية، والذي لمس ساقه قال بأنه اسطوانة، ومن لمس خرطومه وصفه بأفعى غليظة، ومن لمس نابه وصفه بالسيف.. الكل على حق؛ كلٌ فيما عرف، ومن مجموع حقائقهم تكتمل حقيقة الفيل.. كنت مستغرقاً بهذه الأفكار حتى قررت الكتابة عن القصف، سأكتب ما أعرف، ما أجمع، ما أهذي، ما أتذكر، تواريخ، كتب، أقوال، أرقام، قصائد وحكايات.. لدي حكايات كثيرة ولأصدقائي أيضاً.. نظرت إلى ساعة الحائط لحظتها فوجدتها تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل وفي مثل هذه الساعة بالتوقيت العراقي بدأ القصف على بغداد في ليلة ١٦ ــ ١٧ من كانون الثاني سنة ١٩٩١ .. هبت العاصفة،

واشتعلت السماوات والأراضي. كنت أنا حينها أبكي في جوف الدبابة البارد، فيما أمي تكاد تختنق بفساء أحفادها الذين حبستهم معها في غرفة مغلقة، سدت نوافذها بالكرتون والبلاستك خشية القصف الكيميائي. هربتُ من الحرب مع ابن عمي وأسكرنا الجحش الصغير في قرية (الفأرة) على إيقاع أخبار القصف والأغاني الأجنبية، قَبلَها كانت دار العدالة المائلة في كركوك تهتز مع دوي القصف الهاطل على آبار النفط ومشاعل النار الأزلية، فيما يغير صديقي (قاطع) علاقته بالمراحيض بفضل حادث قصف، ويحدثني الأفغاني عن ابن عمه الذي ولِد تحت القصف الإنكليزي وأحب فاطمة تحت القصف السوفيتي ثم مات معها في عرسهما تحت القصف الأمريكي، أما صديقي الذي يعيش الآن في قرية متجمدة شمال كندا فلا يتذكر من الحرب، في رسائله، إلا بكاء الناقة مسعودة على ولدها سعيد الذي مزقه القصف في صحراء السعودية..

انتبهت إلى أنني لم أتناول عشائي حتى الآن.. لكنني/كأني/كنتُ سعيداً بمواجهتي لمفردة القصف، حالماً بإمكانية رفع الصوت المعترض أعلى من دوي القذائف.. نهضت عن الكنبة وتوجهت فوراً إلى طاولة المطبخ، تناولت علبة زيتون، فتحتها، ورحت ألتهم حباتها فيما أكتب أولى صفحاتي.. قاصفاً بياض الورقة بسواد الحبر.. أكتب وأكتب وسأكتب.. حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

أول القصف

عرضـــتُ الليلة على صديقي، بعد أن تناولنا العشاء في مطبخ بيته، ما كتبته ليلة أمس في مطبخ بيتي. وكان هذا أول نص أكتبه عن القصف، فقال: عليك أن تجد له إطاراً حكائياً إذا ما كنت تفكر بنشره على شكل قصة، وفي الحقيقة، إننـــي أتفـــق معه على ذلك ولكنني فشلت في إيجاد هذا الإطار.. فمن ذا الذي يســـتطيع تأطير القذائف؟!، كما أن إعادة الكتابة تضجرني جداً.. لذا حاولت، كـــأي كاتب، أن أبرر ذلك؛ بأنني أقصد جعل هذا النص مفتوحاً.. وأبقيه وفق مـــناخ وروحـــية تدفـــق التداعي التي اجتاحتني حين كتبته ليلة أمس.. ثم أنه محتشد بالحكايات كما ترى يا صديقي.

قال: إنه بحاجة إلى إطار يمنحه التماسك ويوحد بُنيته.. فأخبرته بأن النص ســـيكون جـــزاً من كتاب يتمحور حول القصف وسيضم نصوصاً متباينة في طبـــيعة جنســـها ولغـــتها وأحداثها.. ستكون فيه نصوص معلوماتية وتاريخية أجمعهـــا مـــن الصـــحف والموسوعات والانترنيت، قصائد ونصوص انثيال لغـــوي.. هـــي بحـــد ذاتها صور من معرض القصف.. بل وإني سأعرض، بأســـلوب صحفي، كتاباً يتحدث عن القصف.. ومن ثم هناك حكايات وذكريات ستأخذ طابع القصص القصيرة.. وجدت نفسي أُقنع نفسي بالأمر لذا لم أهتم بما قالـــه صـــديقي بعدها. وعند خروجي من بيته تذكرت الصديق الذي اخترعه ثربانـــتس في مقدمة كتابته للكيخوته، ذلك الصديق الذي خفف عنه قلقه وطرد عـــنه حـــيرته حيـــن راح يبرر له كل ما كان يعتقد ثربانتس بأنه نواقص في نصـــه.. لـــذا قـــررت أن أخترع هذا الصديق هنا لأجد بواسطته هذا الإطار الحكائي لهذا النص، فوضعت هذه المقدمة وتركت النص على حاله هكـــذا:

..يا ابن قابيل ما أنت في هذه الدنيا إلا قاصف أو مقصوف، وغالباً ما تكون مقصوفاً حتى تنتهي تحت قصف. ابتدأت كينونتك ببصقة من قصف شهوة استحالت في الظلمة إلى أنت. والأصل تراب ثم من بصقة/نطفة، ثم من علَقة ثم من مضغة مُخلّقة وغير مُخلّقة.. المضغة إلى عظام ثم كُسيت العظام لحماً في ظلمة قرار مكين.. نطفة أمشاج مبتلاة ثم تَسمع وتُبصر. من حين إلى آخر تهز الرحم أو يهتز بك، يضيق ويتسع ثم يتسلل إليك شيء لحمي عصبي، ستعرف مستقبلاً أن تشبهه بمدفع. يدخل ويخرج ويدخل ويخرج و.. يرفسك وتنكمش فيما يكاد هو أن يطالك عبر هجوماته الغاضبة السريعة، لكنه لا يطالك فيقصفك باصقاً عليك مخاطه وحيواناته. يسكن بعدها كل شيء وتبصره ينكمش فتتنفس عندها بعمق وتخلد إلى السكينة والهدوء حتى تضجر لتعاود أنت بعدها قصفك لجدران سجنك رفساً بالأقدام.. وحين تبلغ الشهر التاسع من دمك ستغادر مكمنك المظلم حيث كان دفء الأمعاء المعبئة بالغائط يحيط بكيس إقامتك. ستغادر بطن أمك؛ من ظلمتها إلى نور العالم أو من نورها إلى ظلمة العالم. ستغادر رحمها إلى الأبد وقد تقول، حين تكبر، بأنها كانت مجرد قميص وخلعته.. قصيدة تكتبها أيام التسكع: أمك قميص وخلعته/ رميته ممزقاً يفوح برائحتك/ ولن تعود إليه/ إلا حين يلوي برد الخيبات عظامك. لكنك تدرك بأنها كانت أول وطن تُطرد منه لتعيش في المنفى الأول الذي يسمونه لك الوطن الأول حيث استقبلوك بالقصف صفعاً على مؤخرتك وأنت تصرخ. ستبدأ رحلة تنفسك بالبكاء والناس حولك يضحكون.. فهل ستنهيها بالضحك تاركاً لهم ذروة البكاء؟.

في البدء كان البكاء.. ياه.. يا لها من مكابدة!.. يا ابن قابيل.. يا لها من معضلة وهم يلقون عليك بالأسماء حتى يصيبك أحدها ويلتصق بك إلى الأبد،

وســـوف يكـــون هو المسمار الذي يعلقونك منه في أوراق المؤسسات وتستدل الشرطة عليك عبره حين ترتكب تمردك لاحقاً مدفوعاً بنبضات روحك المتلهفة للتحرر.. ومع كل مساوئ الاسم فإنك ستقع في حبائله إلى الحد الذي ستمضي معظـــم رحلتك مُعرفاً به ومدافعاً عنه وأنت لا تراه، لكنهم سينادونك به قصفاً وتقصف الناس به مُعرّفاً.. دائراً في دوامتهم، ظاناً بأنك كائن خاص لا تتكرر لأنك بالنسبة لنفسك؛ أنت كل العالم وإن كنت لا تعني شيئاً للعالم.. ما العالم؟.. بيـــت ومـــدارس وقرى ومدن وسماوات وبلدان.. أرض.. أرض ستُدفن فيها ختاماً معْ أطنان غائطك وعظام أسلافك.

ستقصفك أمك في الصباحات حين تكتشف بأنك قد بللت فراشك وستقول لك حيـــن تكســـر جـــناح إحـــدى دجاجاتها: قصف الله عمرك. أو: ماذا فعلت يا مقصوف العُمر؟ فيما سيهددك والدك بالذبح إذا ما عاودت التسلل إلى النهر في ظهيرة تموزية. ويصفعك المعلم لأنك لم تكتب الواجب.. ما أكثر ما سيقولون لك: يجب عليك أن.. حتى تعتاد أنت على ذلك أعواماً لتقول لنفسك: يجب عليَّ أن..

كـــم مـــن كلب سينبح عليك، وكم من صبي سيحاول قرص مؤخرتك وأنتم تلعبون لعبة الحرب متقاصفين بالحصى والكلمات الكبيرة.. كبيرة لأنها كلمات الكـــبار، ولذلك فهي مفعمة بالخشونة مثلهم. سيرفسك حمار الجار على بطنك حين تقترب لاستعادة كرتك التي تسللت تحت قوائمه. سيصفعك مدير المدرسة لأن شـــعرك طويـــل وأظافـــرك متسخة، ويمطرك والدك بالصفع عند حلاقته لشـــعرك عقوبـــة لرأسك الذي يتلفت.. رأسك الذي لا يهدأ. ستقصفك السماء بالمطـــر والـــثلج والحـــالوب، وتقصـــفك الأرض بالـــرمل والغبار وأغصان أشجارها.. ستقصفك الأشجار بذرق العصافير، والريح بنتانة الحيوانات الميتة،

والطرقات براكبيها، والأوراق بالكلمات.. سيهددك المعلم بالفشل، والأب بالضرب، والأم بالتجويع، والصاحبة بالهجر، والحكومة بالسجن، والحياة بالموت، والله بالنار.. سيضربك أخوك الأكبر لأنه أعلى منك، وستَضربَ أختك الصغرى لأنها أخفض منك.. ستأكل آلاف الحيوانات بانتظار أن تأكلك آلاف الديدان أو الحديد أو التراب. عارياً أتيت وعارياً ستذهب. ستبدأ باللعب وتنتهي باللعب لأنك لن تفهم شيئاً، ممضياً رحلتك بمحاولات النجاة.. ولا نجاة.

سطوت على بستان عمك مع ابن عمك لقطف التين فهاجمكما العم قصفاً بالحجارة وبالطين ركضاً حتى أطراف القرية حيث لا عودة للعشاء، ترتعدان وسط عواء الذئاب ونباح الكلاب. ثم تسللت ليلاً مع صاحبك إلى مخزن المدرسة لسرقة أصابع الطباشير الملونة وقمصان الرياضة وكتاب رحلات السندباد، ولم تستطيعا الخروج من النافذة التي نفذتما منها إلى الداخل، حتى جاء المدير بعصاه بعد يومين، وشاعت فضيحتكما في ساحة المدرسة وحول مواقد القرية، ثم انتهيتما تحت لحف الأمهات وكماداتهن على جراح ضربات الأباء بنعل أو حزام جلدي متحجر.. فلماذا كررتما التلصص على بنات الجيران عاريات في الحمّام؟.. كم حذروك بـ(لاءات) ظلت تسد دروبك في كل خطوة.. كم من (لا) تحملها كصليب دائم يزداد ثقلاً وتتوقع اللحظة التي يظهر فيها من يصلبك عليه!.

لقد آن لك أن تقر إذاً إحدى قواعد فهمك لهذا العالم.. وأن تدل نفسك على إحدى نوافذ الرؤية إليه.. فقل وكرر القول: ما أنت في هذا العالم إلا قاصف أو مقصوف.. ما أنت فيه إلا قاصف أو مقصوف، وغالباً ما تكون مقصوفاً، .. ما أنت فيه إلا.. ما أنت فيه.. ما أنت؟.. مـــــا..؟.

تاريخ القصف

(المجلد الأول)

طفولة الدنيا

"ما مِن أحد يبتعد عن الطفولة مسافة خطوة."

حسن مطلك

أصابتني المَسَرّة حين اكتشفت بأن أختي الصغرى كاظمية تسرق الكتب من رفوفي، فدعوتها بعد العشاء إلى غرفتي وأجلستها أمامي على كرسي كنت قد صنعته بنفسي من بقايا حطام سرير جارتنا القديم. وأردت أن أبدأ بـ (تثقيفها) من الصفر، أحدثها بما أعرفه عن تاريخ العالم منذ البداية، فقلت: إن أجمل حكايات الدنيا تلك التي تتخيل الخلق في كل الديانات والأساطير، كالتي تقول، حسب رواية إيتماتوف في "الكلب الأبلق الراكض على حافة البحر"، (قالت: قرأتها.. حلوة) بأن الأرض، كل الأرض، كانت مغطاة بالمياه، وكان الكائن الوحيد حمامة تطير حتى أتعبها الطيران ولم تجد يابسة تستريح عليها فراحت تنتف من ريشها وتصُفّه على وجه الماء ثم حطت عليه.. وهكذا تجمعت حول بقعتها العيدان والدود الميت والأشياء الصغيرة الطافية حتى كبرت البقعة واتسعت اليابسة وصارت قارات. يقول أحدنا: إن الذي لا يعرف التاريخ سيبقى طفلاً. فيما ستكفيك لحظات قليلة تتذكرين فيها تاريخ البشرية لتدركي

بأنـــه صراع دائم، حروب وتبادل قصف من أوله إلى آخره. ما مر عام دون قصـــف، ما مر يوم دون أن يقتل أحدنا آخر. خذي مثلاً أول كتابات ألواح ما بين النهرين ستجدين:"حين السماوات في الأعالي لم تكن قد دُعيت بعد ولا كان لـــلأرض فـــي الأســـافل اســـم يطلق عليها، (أبسو)، الواحد الأول، ومُنجبتهم وصـــانعتهم (تـــيامة)، التي ولدتهم جميعاً، ومزجت مياههم معاً لكنها لم تشكل المـــروج، ولا اكتشفت غياضَ القصب؛ وحين لم يكن حتى للآلهة التجلي بعد، ولا أســـماء أُعلنـــت، ولا أقدار رُسمت، عندها ولدت الآلهة في داخلهم". خلق البشر الأرباب وجعلوهم يتقاتلون فيما بينهم وخلق الرب البشر وجعلهم يتقاتلون فـــيما بينهم، ، هذا دون أن يكف البشر والأرباب عن التقاتل. حين تقرأين في التاريخ عن حروب الآلهة ستجدينها أكثر سذاجة من حروب طفولتنا حول حبة فســـتق. إله البحار يتحدى إله العواصف بسبب ضفدعة، وإلهة الحب تُحرض إلـــه الحـــرب على الانتقام من قوم عشيقها لأنه نظر إلى غيرها. ونقرأ على ألـــواح طيـــن أخرى وثيقة تقول: "في البدء المُطلق، تزوج المحراث الأرض، وقـــررا أن يؤسســـا عائلة وكياناً مستقلاً، قائلين: سوف نقسم التربة البكر من الأرض إلـــى كتل ترابية. وفي التربة البكر خلقا البحر، وأنجبت الأثلام، بملء إرادتهـــا، إلـــه القطـــيع، ومعاً بنيا له بلدة دونّو لتكون ملاذه إلى الأبد، وأقام المحراث لنفسه كياناً مستقلاً في دونّو، ثم رفعت الأرض وجهها نحو ابنهما إله القطـــيع وقالت له: تعال ودعني أمارس الحب معك! فتزوج إله القطيع من أمه الأرض، وقـــتل أباه المحراث، دفنه في دونّو التي أحبها، استولى على كيانه. وتـــزوج شـــقيقته الكبرى البحر. فأنجبا إله أسراب الطيور الذي قتل والده إله القطـــيع، وفي دونّو دفنه في قبر أبيه. وتزوج من أمه البحر. ثم ذبَحت البحر والدتهـــا الأرض، وفـــي الـــيوم السادس عشر من شهر كيسليمو استولى على

الكــيان والسلطة. وتزوج ابن إله أسراب الطيور من شقيقته النهر، ثم قتل أبيه إلـــه أســـراب الطيور وأمه البحر ودفنهما في القبر حيث السَكينة، وفي اليوم الأول من شهر تيبيت استولى على الكيان واستأثر بالسلطة لنفسه. وتزوج إله الرعــيان ابـــن إله أسراب الطيور من شقيقته (المرج وشجرة الحور) وجعل مـــروج الأرض مخضوضرة نضرة، فأعالت الحظيرة والخُم لتغذية الأسلاف والمستوطنات والقيام بمتطلبات الآلهة. وقَتل أمه النهر وجعلها تسكن في القبر. وتزوج (خاخرنو) ابن إله الرعيان من شقيقته (بيلت صري) وقتل إله الرعيان وأمـــه (المـــرج وشجرة الحور)، وجعلهما يسكنان القبر وفي اليوم السابع من شـــهر آذار، استولى على السلطة والكيان، ثم (حيّاشوم) ابن (خاخرنو) تزوج شـــقيقته. وعـــند حلول العام الجديد استولى على كيان أبيه، لكنه لم يقتله، ألقى القـــبض عليه حياً وأمر مدينته أن تسجن أباه.. و.." وكان أولئك الذين يروون القصـــص يحكمون المجتمع، كما قال أفلاطون. لكن العلم قد أحبط هذا الخيال العذب المعَذَّب والمُعَذِّب، وقال: بدأ الكون بالانفجار وسينتهي به، هذا ما اتفقت علـــيه نتائج أبحاث علوم الفلك والفيزياء، فيما لم تتمكن أبحاث الجنايات على مدى كل القرون من التوصل إلى تحديد الأسباب الحقيقية للجريمة الأولى التي راح ضـــحيتها نصف البشرية في شخص واحد، بعضنا اليوم يُطري على ذلك لأنه قد خفف من أزمة السكن والمواصلات إلى النصف، وبعضنا الآخر يدينه لأنه لا ينسجم ولائحة حقوق الإنسان الموقعة في جنيف. فيما يتمنى البعض لو أن قابـــيل كـــان قد انتحر ندماً على قتل أخيه (مثلاً) لأراح البشرية من قصف ذاتهـــا. أرشـــيفات التحقيقات الجنائية تظن بأن السبب امرأة وأخرى تقول أن السبب قربان للرب. كما لم تتفق المصادر على الأداة، فبعضها يقول بأن قابيل قد قتل شقيقه هابيل بصخرة وبعضها الآخر يقول بفك حمار ميت.

فـــ (تساءلت كاظمية: والرب؟!).. في الأصل؛ أول رب تصوره الإنسان، كـــان محاربـــاً يعينه على صيد الحيوانات وتفسير كوارث الطبيعة بغضبه، ثم صـــار ربـــاً للجيوش تُرتكَب الحروب باسمه. يقصفون بعضهم باسم الدين ثم يعـــودون بعدهـــا للديـــن كي يُكفروا عن فعلتهم. لقد جعل الناس من الأرباب جـــنرالات ومـــن الجـــنرالات أرباباً. الرب.. هو رب القاصفين والسيد على المقصـــوفين، هو المتعالي، ومن صفة القاصف التعالي، هو الذي علم الإنسان القصف، هو القاصف الأول والأخير وهو الغائب المتخفي، لا تدركه الأبصار في الدنيا لكنه يَعِدها بالتجلي لها في الآخرة بعد أن تتحطم الدنيا.. فمن صفات القاصـــف التخفي عن أنظار المقصوف ثم التجلي له والظهور عليه بعد إلحاق الهزيمة به.

الـــرب يطـــرد آدم مـــن الجنة بسبب تفاحة، آدم يصارع الشيطان فيغوي الشيطان كل ذريته، شيت يحطم الأصنام لكن أولاده يشيدون له صنماً بعد موته كي لا ينسوا بأنه قد علمهم ألا يعبدوا الأحجار، تخاصم الأولاد فصنع كل منهم صـــنمه الخاص حتى جاء إبراهيم وحطمها، ثم حل نزاع زوجتيه بأن فرقهما فـــي الصـــحراء، وأتى لنمرود بالشمس من المغرب إلى المشرق كدليل على وجود الرب لكن نمرود قال: أنا ربكم الأعلى، أجاع نسريه ثم وضع لهما اللحم على رأس عصا في أعلى صندوق وارتفع به إلى أول غيمة ليطلق السهم على رب إبراهيم ويبقى هو الرب، لكن ذبابة دخلت أذنه وظلت تطن في رأسه ليل نهار.. لا تهدأ إلا إذا ضُرِب بالنعل، فاقترح عليه الوزير أن يستبدلوا له رأسه برأس ذهبي. فرح بذلك وأختار أفضل الرؤوس الذهبية فقطعوا له رأسه الذي ســـقط بين قدميه وخرجت الذبابة من فتحة الرقبة، حامت مرتين حوله حمراء مصـــبوغة بالدم ثم ابتعدت بطنينها. أيوب يحارب الدود بالصبر الجميل الذي

يأكلـــه حـــتى الحـــنجرة، ونوح يمضي الوقت في صناعة سفينة يُنقذ فيها من الطوفان زوجاً من كل كائن ويترك ابنه العاصي للهلاك. يعقوب يحارب شقيقه على عشب المراعي. أخوة يوسف يلقونه في البئر غِيرة من حب أبيهم له..

مـــن أين البداية وكل البدايات قصف؟ فلنأخذ خريطة الأرض وأية موسوعة تاريخـــية ونـــراجع طفولة البشرية بإيجاز..(ناولتني أختي الأطلس من الرف الأوسط مباشرة، فأدركت بأنها قد قلَّبت رفوفي جيداً في غيابي). قلت: اعطني الموســـوعة التاريخـــية أيضاً. لكنها لم تجدها. فأخرجتها أنا من صندوق تحت ســـريري، (وعرفت بأنها لم تكن على علم بوجوده). بدأت بوضع إصبعي بين النهرين، وقلت: ميسوبوتاميا، في الأمس، قبل ٦٠٠٠ سنة بنى أبناء قابيل أول قـــرية لهـــم على شاطئ دجلة في العراق، اسمها حسونة (ضحكت أختي لأن حسونة هو ما نُدلع به شقيقتنا الأخرى حسنة، وهي توأم حسن، فأمي قد أنجبتنا توائمـــاً وأبـــي أســـمانا أزواجـــاً، هكذا: أحمد وحمدية، حسن وحسنة، كاظم وكاظمـــية، كامل وكميلة..) ومن يومها اكتشفوا التملك وراحت الأشياء تصبح عـــندهم أعـــز من بعضهم على بعض وبدأت (الحضارات) تتوالد، إحداها من الأخـــرى، تحيا المولودة بموت الوالدة كالعقارب. السومريون اخترعوا الكتابة والمطـــرقة، والكـــتابة بالمطرقة فيما بنى الفراعنة الأهرامات بقصفهم لظهور العبيد بالسياط، وثمة من يقول بأن مصر أم الدنيا. لكني سمعت آخر يرد عليه: إذاً فالعـــراق أبوهـــا لأن آدم قبل حواء، وأول فرعون من أصل رافِديني. لقد راحـــت أدوات القصـــف تنمو بين أيدي أبناء قابيل: فؤوس وسكاكين وسيوف ورماح وأقواس ونشابات وعربات ومجانيق ونار ومدافع وراجمات وصواريخ وطائرات.. ورُوِضَت الخيل والأسود والنمور، أما الحمار فكان قد استسلم من أول لقـــاء لأنـــه أدرك خســـران المواجهـــة مع الإنسان قبل أن يدركها ملك

الحـــيوانات. وبيـــن مجرى النهرين جرت حضارات أوروك قبل السلالات ثم جمـــدة نصـــر وكيش وأور الأولى التي هاجمتها لكش فجاء سرجون الأكدي ليؤسس سومر وأكد التي امتدت حتى عودة غوديا في لكش، ثم دبت الحياة في الدولـــة السومرية حتى نبتت أور الثالثة فأسقطتها وأخذت الرافدين حتى ولادة بـــابل في الجنوب وآشور في الشمال عاصمتها في قريتنا (سديرة) وقلعتها في الشرقاط.(نظرت أختي من النافذة إلى القلعة فقلت لها: نعم هي نفسها). أسست آشور أول مكتبة في العالم أوراق كتبها من ألواح الطين، وتمدد سلطانها على الأرض محمـــولاً علـــى عربات حجرية تجرها الأسود حتى النيل. فيما وضع حمورابـــي أول شـــريعة قانونـــية فـــي رأســـها (العين بالعين والسن بالسن) وديمقراطـــية تعـــدد الآلهة وحقوق المرأة. لكن مملكة ميتاني قد ولدت فسيطر القَسيون على بابل في الوقت الذي كان فيه ملك آشور شلمنصر يطرد الحيثيين من مملكة ميتاني فيستعيد نبوخذ نصر بابل التي سارع الآشوري تغلت فلاسر الأول إلـــى غـــزوها، وفـــي عهـــد حفـــيده أشـــور ناصر بال الثاني تأسست إمـــبراطورية آشور الحديثة وخلفه شلمنصر الثالث المولع ببناء القصور ومياه الـــنافورات وغزا سورية وفلسطين. واحتل تغلت فلاسر الثالث دمشق وقصف بـــابل حتى استسلمت، قصفت آشور الفلسطينيين والمصريين في قرقر ورافيا، وبنى سنحاريب نينوى على أجمل ما في الحلم تحرس أبوابها الثيران المجنحة. تخربـــت بـــابل وحوصـــرت أورشليم. أعاد أسرحدون بناء بابل وقُمعت ثورة صـــيدا، وغُزيت مصر. احتل آشور بانيبال صور ودُمرت طيبة وشوش وتم القضاء على العيلاميين. فنهضت بابل الحديثة مرة أخرى على يدي نابوبولصر وعـــم الخـــراب نينوى وأورشليم، وسبى سابور، أحد قواد نبوخذنصر، اليهود جاراً إياهم أسرى بحبل واحد يربطهم عبر ثقوب أكتافهم كمسبحة يمسك رأسها

بكفه ويسحبها إلى بابل التي خرجت لاستقباله وأسمته بسابور ذو الأكتاف. لــذا اخترع اليهود اليوم في أمريكا الجنوبية مذهباً مسيحياً يصور للبسطاء أن نبوخذ نصر هو الشيطان. وفيما كانت بابل منشغلة باحتفالاتها ومناقشة أفكار مــامي وسقي أشجار الجنائن المعلقة؛ فقست السلالة الأخمينية في فارس من بيضــتها وتزعمها قورش الكبير زاحفاً بها إلى بابل يقصفها حتى ماتت وعــاد اليهــود الأسرى إلى قراهم، وهاجم قمبيز سورية ومصر وضمهما إلى ممتلكاته.. ثــم اشتعلت الحرب الميدية الأولى بين الفرس واليونان وهُزم الفرس فــي معركــة ماراتون. تحالف أحشويرش الأول وقرطاجة ثم اندلعت الحرب الميدية الثانيــة وهُزم الأسطول الفارسي بعد معركة سلامينا، وما لبثت أن اندلعت الثورات في سورية وفينيقيا وعمت الفوضى. وقضى الإسكندر على داريوس آخــر ملــوك الأخمينيين واستولى على مملكة فارس. كانت في كل بقعة معركــة، إيســوس وأربيل و.. وفي كل بيت فتاة تنتظر عودة حبيبها. حتى مات الإسكندر في بابل ونشأت الممالك الهيلينية. أسس أرشاق سلالة الفرثيين في فارس ليتزعمها مــن بعده أرطبان ومن بعده كُثر من ميتريدات، حيث هاجم الثاني منهم سورية وكان أرطبان الخامس آخر ملك فرثيّ. ولدت السلالة الساسانية على يــدي أردشــير واحتل الفرس نصيبين وحرّان، وأسر شابور الأول فاليريانس وقتله، وبعد ولده شابور الثاني جاء يزدجر الأول واحتل بهرام الخامس أرمينيا دون أن يســتمع إلى موسيقاها. وقاد فارس بعده قباذ الأول ثم كسرى الأول أنوشروان وكسرى الثاني أبرويز الذي قضى عليه البيزنطيون فكان بعده يزدجــرد الثالــث آخــر الساسانيين حيث اجتاح العرب المسلمون بلاد فارس، دون أن يقطعوا شــجرة، وانقرض الساسانيين.

تعالي إلى مصر (قالت أختي: واااو.. كم أحب الأغاني المصرية!) لتجدي

ســـلالة الفراعـــنة الأولـــى فـــي تينســـي، وتبني الثالثة والرابعة والخامسة الأهـــرامات، وتشن السادسة حملة على بلاد كنعان فنفذ السوريون إلى السلطة وعـــاد توالـــي سلالات الفراعنة السابعة والثامنة والتاسعة وأسس خيتي الثاني العاشـــرة، وتنازعـــت ممفيس وطيبة ليؤسس بعد ذلك أمنمحات السلالة الثانية عشـــر ويُخضـــع سيزوستريس الأول ليبيا ويحمل مجدداً على بلاد كنعان ثم السلالتان الثالثة عشر والرابعة عشر إلى أن اجتاح الهكسوس مصر واحتلوها لكـــن السلالة السابعة عشر تبلورت في طيبة من جديد وتأسست الدولة الحديثة وإلههـــا آمـــون. ثـــم أسس أحمس السلالة الثامنة عشر ووحد البلاد بعد طرد الهكســـوس واستعيدت السيطرة على بلاد كنعان. ومد أمينوفيس الأول الدولة حـــتى الفـــرات وحمل تحوتمس على بلاد النوبة فيما بنى الثاني بعده الكرنك، وبعـــد الثالـــث اســـتولت الملكة حتشسبوت على السلطة إلى أن ماتت فاستعاد تحوتمـــس الثالث مُلكه وراح يشن الحروب فانتصر على السوريين في معركة مجدو واحتل قادش وفينيقيا. وتزوج أمينوفيس الرابع الجميلة نفرتيتي وأخذ اسم أخناتون ثم هجر طيبة وتخلى عن عبادة آمون، لكن توت عنخ آمون من بعده عاد ليتصالح مع كهنة آمون ورجع إلى طيبة. وأسس رعمسيس الأول السلالة التاســـعة عشـــرة فـــيما أكمل الثاني من بعده بناء هيكل الكرنك وانتصر على الحيثييـــن فـــي قـــادش ثـــم تم طرد العبرانيين من مصر وبدأ عهد الفوضى والانحطـــاط، فحاول الفراعنة تأسيس سلالتهم العشرين لكنها تحطمت فأسسوا بعدهـــا الحادية والعشرين والثانية والعشرين وغزو فلسطين وتناسلت سلالاتهم حتى السادسة والعشرين حيث تحالف بعدها نخاو الثاني مع الآشوريين إلا أنه خســـر المعـــركة، بعـــد ذلك، في كركميش أمام نبو خذنصر. فضعفت مصر واجتاحها قمبيز الثاني ملك فارس وجعلها ولاية تابعة له إلى أن جاء الإسكندر

وأخذها منه فبنى الإسكندرية وألصق بها اسمه وتبعته من بعده سلالة البطالسة أو اللاجيين حيث تفتحت كليوباترة مثل زهرة وحشية وتزوجت أنطونيوس الذي سرعان ما انتحر بعد أن خسر معركة أكسيوم فانتحرت بعد انتحاره كليوباترة (قالت أختي:أوه.. يا حَرام.. مسكينة) وتحولت مصر إلى مقاطعة رومانية.. لكن النيل لم يتوقف عن الجريان.

أما في بلاد الشام.. بلاد النساء الأنيقات والعطور الحلبية، فقد نبتت أوغاريت في رأس شمرا ثم نبتت إلى جوارها بيبلوس ببيوت مزينة بالخزف الملون، فتأسست من بعدهما صيدون وصور، وبدأ الشاميون التجارة مع مصر وظلوا على نهج التجارة ليصبحوا أفضل تجار الأرض حتى اليوم.(هل تذكرين شخصياتهم في روايات ماركيز وجورج آمادو؟). حمل الفراعنة عليهم أكثر من مرة وأوجعوهم ضرباً فنزفوا في معركة مجدو كثيراً. إلى أن جاء أحيروم ملك بيبلوس وظهرت معه الأبجدية وسيطرت صور على مدن فينيقيا. غزو شعوب البحر. خراب أوغاريت. الفينيقيون في قبرص. داود يصبح ملك يهوذا، إنه النبي الحداد صاحب أجمل صوت بشري. قَتل جالوت الجبار بأن قصفه بمقلاعه بحصاة أصابته بين عينيه، وصار ملكاً عادلاً وحكيماً ومع ذلك قَتل أوريا أحد قادة جيشه ليتزوج بامرأته على الرغم من أنه كان متزوجاً بتسع وتسعين امرأة قبلها. وأصبحت أورشليم عاصمة يهوذا، وصار سليمان بعد أبيه ملكاً يركب الريح ويجلب عرش الجميلة بلقيس اليمن على ظهور الشياطين ويكلم الحيوانات فتُبكيه كلمات نملة ثم يموت واقفاً على عصاه أعواماً إلى أن نخرتها دودة الأرض فسقطت/ سقط وفرحت الشياطين. تأسست السامرة. وصارت حماة مركزاً للمملكة الآرامية. تأسست قرطاجة. وتوالت حملات تغلت فلاسر الثالث على سورية وفلسطين. ثم جاءهم سرجون الثاني بجنده

وانتصـــر على الفلسطينيين والمصريين في قرقر ورافيا، إلا أن صيدا لم تلبث أن ثارت على الآشوريين فقمع أسرحدون الثورة لكنه فشل في محاصرة صور حـــتى جاء من بعده آشور بانيبال واحتلها. وحاصر سنحاريب أورشليم، ليأتي مـــن بعده نبوخذنصر ويحتلها مرتين، يخربها مرتين ويسبي أهلها مرتين إلى بابل. وتخضع صور لبابل إلى أن خلصها منها قورش الكبير ملك فارس وأعاد أسرى أورشليم إليها، وأعاد بنائها واحتل سورية إلى أن ثارت على الفرس مع فينيقـــيا وصـــيدا، لكـــن الإسكندر جاء ليحتلهم بعد الفرس ويمضي في طريق اجتياحه إلى أن مات في بابل فتنازع قواده فيما بينهم ونشأت الممالك الهيلينية، وولدت سلالة السلوقيين في سورية وتعاون سلوقس مع ليسماخس ليقضيا على أنتـــيغونس وتأسســـت أنطاكـــية على ضفاف نهر العاصي مثل راعية تمشط شعرها محدقة في صورة وجهها على وجه الماء، وقُتل سلوقس وجاء من بعده أكثر من أنطيوخس حيث اجتاح ثالثهم الهند وأشعل المعارك في رافيا وبانيون وأدخـــل هنيبعل إلى بلاطه لكن هنيبعل مات بعدها في بيثينية وثار المكابيين، واحتل بومبيوس سورية وتسيّد هيرودس ملكاً على اليهود ثم ولد عيسى المسيح يدعـــو الناس إلى المحبة والكف عن التقاصف قائلاً: من كان منكم بلا خطيئة فليقصـــفني بحجر.. لكنهم صلبوه يا أختي. قصفوه وأمه مريم بالشتائم ثم ثقبوا كفيه بالمسامير.(علقت كاظمية: يا حرام.. لماذا؟.. إنه طيب!).

هذه التي تحت إصبعك هي الصين وجارتها الهند. بدأت الصين بسلالة تشو وأســـس لاوتسو الطاوية، فيما حكمت سلالة ماغادا وادي الغانج. فصحى في الهـــند بـــوذا من رحلته الروحية وقال لا تقصفوا بعضكم فجميعكم محكومون بـــالألم.. لكـــنه أقـــام، هو الآخر، دولته أيضاً على هامش تحارب الفرس مع الـــيونان فـــي الحرب الميدية الأولى. ترك كونفوشيوس عمل الحراثة مع أبيه

وقال أريد أن أغير العالم، فابتسم الأب لهذا الفتى الفاشل في الحراثة ويحلم بتغيير العالم، لكن الابن غسل كفيه ووجهه من ماء الجدول وقال بأن مسيرة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة.. فأضاءت خطواته أرض الصين وأثمرت كتاب التحولات. لكن فارس نهضت من جديد وسقطت بابل فساد قورش الشرق كله، احتل مصر والهند وتحارش بالصين وسقطت سلالة تركوينس في روما فولدت من رمادها أول جمهورية. دخل الإسكندر الهند فبنت الصين سورها حين رأته هائجاً كالثور ينطح كل جهات الأرض بقرنيه، وهندسوا السور على إيقاع طقطقة أضلاع الفقراء المتكسرة تحت ثقل الصخور، فلاحون طيبون ظلت عيونهم صغيرة ووجوههم مصفرة بسبب خواء البطون. لكنهم ما أن أتموا بناء السور حتى تقاصفوا داخله، فيما بينهم، قضت مملكة تسو على مملكة سونغ وحكم الأمراء إلى أن جاء تشنغ ملك تسين وقضى على مملكة تسو وتوحدت الصين حيث تأسست بعدها سلالة هان، وبدأ غزو الهند للصين وانتصر وي تسنغ على الهون، فاحتل الصينيون منغوليا وتونكين وتركستان ومع نهاية آخر مملكة إغريقية في الهند راحت البوذية تتسرب إلى الصين وتم اختراع الورق هناك.. لكن الصين تقسمت وسقطت سلالة هان إلى أن ولد سوماين وأعاد توحيدها مرة أخرى.

اقلبي الصفحة.. هذه هي منطقة اليونان والأناضول والعالم الإيجي فقد بدأ الضوء بالعصر المينوي القديم في جزيرة كريت. الإيونيون في اليونان وخراب القصور الكريتية الأولى ثم بدء الحضارة الميقينية وبدأ التعرف على مصر وسوريا وتم التحارب حتى خراب طروادة يوم تبنى اليونانيون الأبجدية الفينيقية وبدأ العهد الأرخي وانتشرت قصائد هوميروس والألعاب الأولمبية. وشعر اليونانيون بدفء الحليب في خصاهم لذا راحوا يقصفون الجيران

ويبـــنون المدن في صقلية وإيطاليا ويؤسسون بيزنطة على ضفاف البوسفور، وقـــاد داريوس الأول حملاته حتى ضفاف الدانوب حيث البط الأبيض يصطاد صـــغار الضـــفادع، لكن الفرس هاجموا تراقيا ومقدونيا واشتعل الصراع بين إســـبرطة وأثيـــنا ثم توالت الحربان الميديتان بين الفرس واليونان فعقدت أثينا حلـــف ديلـــوس البحري وجاء بركليس ليصنع عصر أثينا الذهبي ويعقد صلح كالـــياس، لكـــن الديكتاتورية سرعان ما تعاود الظهور، كعادتها في كل زمان ومكـــان، فثارت أثينا ولم تهدأ إلا بعودة الحكم الديمقراطي.. لكنها سقطت بعد قلـــيل، وفرضت عليها إسبرطة حكم الثلاثين والتقى سقراط بأفلاطون ليُعلموا العـــالم المـــنطق، لكـــن الضـــيف الآخر ديوجين، صاحب فانوس النهار في الشـــوارع، قد راح يتعمد بقفزاته على الأرائك والكراسي في مضافة أفلاطون ويلطخهـــا بأقدامـــه الموحلة ساخراً من الجميع لأنه كان على يقين من أن هذا العالم قد تقاصف من أوله وسيتقاصف حتى آخره.. بلا منطق، ولذا ضحك من مـــنطق ســـقراط الذي تقبل الحكم باسم المنطق وشرب كأس السم بيديه.(قالت أختـــي: أوه.. يا حَرام.. مسكين) هاجم الغاليون روما لكن أفلاطون ظل حالماً يبني أكاديميته، وبمنطقه يطرد الحالمين الشعراء. وتخربت إسبرطة على يدي الطيبييـــن فـــيما كان أرسطو يحاول تربية الإسكندر بفن الشعر لكن الإسكندر حيـــن نمى ونبت له قرنان راح ينطح كل جهات الأرض (قالت: أنت تُكرر!) قلت: التاريخ هو الذي يكرر نفسه. (وواصلتُ): يهد إمبراطورية الفرس ليبني الإسكندرية ويجتاح مصر حتى الهند ثم عودة إلى بابل ليموت هناك في غرفة عشـــيقته المعَطرة، ويتنازع قواده من بعده فتنشأ الممالك الهلينية؛ البطالسة في مصر، السلوقيون في سورية ، الأتاليون في آسيا الصغرى ، الأنتيغونيون في مقدونيا واليونان. خراب مملكة إبيرس وموت أرخميدس ، وروما تعلن الحرب

على فيليبس الخامس فتكون في معركة بيدنا نهاية الأنتيغونيين وتتقسم مقدونيا، لتصـــبح اليونان مقاطعة رومانية ومقدونيا مقاطعة رومانية ، إلى أن تثور أثينا علـــى روما بلا طائل فتخضعها روما وتخضع معها كريت أيضاً. وروما هذه التي يناديها الغرب بأمنا تأسست بعد قادش بقرن ونصف لأن الفينيقيون كانوا قـــد وصـــلوا إلى مضيق جبل طارق قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام. وجاء في قصـــيدة الشاعر موسيخوس بأن أوروبا هو اسم أميرة فينيقية، حسناء لبنانية، تشـــع كالماس عند تنزهها على شاطئ المتوسط تحت الشمس، وتمنح الأزهار مـــن عطرها. خطفها الإله زفس الكريتي، عبرت البحر ومنحت اسمها للقارة التـــي كانت من قبلها بلا اسم. الشعوب الهندية الأوروبية في بريطانيا. سلالة تركويـــنس تبدأ في روما، ثم تأسست مرسيليا وسيطرت قرطاجة على غربي صـــقلية فســـقطت الملكـــية في روما واحتلها الغاليون وعقدت المعاهدات بين قـــرطاجة وروما التـــي دخلت حرباً مع السامنيين وهزمتهم فولِد هنيبعل في قرطاجة واحتل ساغونتو ثم اجتاز جبال الألب وغزا روما. صلح بين قرطاجة وروما. روما تعلـــن الحـــرب على فيليبس المقدوني وتعفي مواطنيها من الضـــرائب ثـــم معركة بيدنا التي قسمت مقدونيا والحرب الفونية الثالثة فتسقط قرطاجة ويعم الخراب كورنتس وتشتعل حرب العبيد في صقلية، وتفشل ثورة أثيـــنا، وبومبـــيوس يحـــتل سورية، حرب غاليا، معركة فارسال حيث هزيمة بومبـــيوس ومقتله. وقيصر يسافر إلى مصر ليحل في قصر كليوباترة. معركة أكســـيوم. أوكتافيان يحتل مصر فينتحر أنطونيوس ومن بعده زوجته كليوباترة (قالت أختي: ولكنك قلت بأنها انتحرت مِن قبل!) وستظل الكليوباترات يكررن انتحارهـــن حتى قيام الساعة. يموت فرجيل ويولد عيسى المسيح فيدعو الناس إلـــى عـــدم قصـــف بعضـــهم لـــبعض ويقـــول أحبوا أعداءكم فيصلبونه يا

أختي..(قالت: ولكنهم قد صلبوه من قبل!) وسـيظلون يصـلبونه حتـى قيـام الساعة.. يتخذون من رسالته ديناً يحوّرونه على هواهم ليبرروا حروبهم. نيرون يبزغ كطاغية في روما يقتل أمه وزوجته ومربيه، يضـطهد أتبـاع المسـيح ويحرق روما ثم ينتحر(قالت أختي: مخبول). السلالة الفلافية. (تضحك كاظمية مرددة: الفلافلية!. وأضحك لضحكها ثم أُواصل:) ثورة البركان فيزوف. خراب بومبيي وهرقولانو وباستيا. السلالة الأنطونية. احتلال تدمر. احتلال أرمينيا وما بين النهرين. السلالة الساويرية. الأباطرة العسكريون. فيليبس العربـي الـذي اغتالوه. اضطهاد المسيحيين. الأباطرة الإيليريون. أورليـاس يأسـر زنوبيـا ويقضي على مملكة تدمر(سألت: أكانت جميلة مثل بلقيس؟) هل قلتُ بأن بلقيس جميلة؟. أنا أقول لكل امرأة أنت جميلة.(قالت أختي: وأنا؟) وأنت أيضـاً، أمـا بلقيس فقد سمعتُ بأن في ساقيها شَعر.. لا أدري، فلم أرَ امـرأة يمنيـة فـي حياتي.. أعرف بأن زنوبيا أو زينب قد تابعت قيادة حركة التحرر من الرومان بعد موت زوجها ، واجتاحت مصر وأسيا الصغرى، وكانت تحب النقود كثيراً. وحمل عليها أورليانس بجيش كبير فأسرها قرب حمص وأخذها أسيرة إلى روما وبقيت هناك حتى ماتت في سجنها.(قالت أختي: أوه.. يا حَـرام.. مسـكينة). سادت مرحلة الاغتيالات. السلالة القسطنطينية. إطلاق الحرية للدين المسيحي. البرابرة يغزون أوروبا. هونوريوس أول إمبراطور في الغرب. السكسون فـي إيطاليا. ألاريك ملك الفيزيغوط يغزو روما. يقصف جنسـريك ملـك الفانـدال أفريقية. ظهور (الفاتح) أتيلا ملك الهون فيجتاح الغرب إلى أن تصـده غاليـا. سيطرة ملوك البرابرة وتخاذل الأباطرة. فسقطت الإمبراطورية الغربية ونشأت الممالك البربرية في أوروبا، الفرنج في فرنسا، الفيسغوط في إسبانيا، الألمـان على ضفاف الرين.

تيودوريك الكبير ملك إيطاليا. البيزنطيون في أفريقيا. الملوك الخاملون وأمنـــاء البلاط في فرنسا. العرب يجتاحون المضيق ويدخلون إسبانيا. شـــارل مارتـــل يوقف الزحف العربي في بواتيه. تأسيس الدولة البابوية وشارلمان يشن حملاته على السكسون لكنه يفشل في محاربة العرب في إســـبانيا، النورمـــان يغـــزون إنكلترا، النرويجيون في إيرلندا، النورمان في فرنسا، النورمان يؤسسون مملكة في إيرلندا. طرد الدنماركيين من إنكلترا، اقتسام النرويج مثل رغيف بين السويد والدنمارك، الأسبان يستعيدون طليطلة. الحملة الصليبية الأولى. إمبراطوريـــة اللاتين الصليبية في بيزنطية، وقعة العُقاب، انتصار الأسبان على الموحـــدين. نهاية الإمارات الصليبية في الشرق. استيفان دوشان يؤسس مملكـــة صـــربيا. حرب المائة سنة بين فرنسا وإنكلترا. معركة كوسوفو فيحتل العثمانيون صربيا. جان دارك تطرد الإنكليز من أورليان. استيلاء العثمانيين علـــى تســـالونيكي. محاكمة جان دارك وإحراقها في روان.(قالت أختي: أوه.. يا..) فقاطعتها مكملاً عبارتها: حَرام.. مسكينة. غوتنبرغ يخترع المطبعة. يوحنا هونيـــادي يطـــرد العثمانيين من ترانسيلفانيا. حرب الوردتين في إنكلترا (قالت مندهشـــة: حـــرب الوردتين!!).. ليونارد دافنشي، ميكيافيلي، مايكل أنجلو. تُبنى أسوار الكـــرملين في موسكو. كريستوفر كولمبس يكتشف أمريكا.(قالت مستغربة: يكتشف؟!.. ألم تكن موجودة من قبل؟!) الأسبان يأخذون غرناطة. طرد العرب من الأنـــدلس. محاكم التفتيش.. وما أدراك ما محاكم التفتيش!.

حرب فرنسا في إيطاليا ضد الإمبراطورية الجرمانية واحتلال ميلانو. الملـــك فرنسوا الأول يقصف السويسريين ويضعهم في جيبـــه. شـــارلكان إمبراطـــور الغرب وملك إسبانيا. فرنسا تتنازع مع النمسا. تستقل السويد عـــن الـــدنمارك. الأسبان يأسرون فرنسوا الأول فـــي بـــافيا. معركة موهاكس. سليمان القانوني

يقتل ملك المجر. إيفان الرهيب قيصر روسيا. النمسا تضم دولة ميلانو. ماري ســتيوارت الأولـــى ملكة اسكتلندا. يولد ثربانتس. وتشتعل الحرب الدينية في فرنســا. تــثور هولندا على إسبانيا. معركة ليبانتو التي ينتصر فيها النصارى علـــى العثمانيين ويُجرح فيها ثربانتس وعند عودته في سفينة الشمس مع أخيه يأسره قراصنة البحر الجزائريون فيلد بعدها الكيخوته. المذابح الدينية تشتد في فرنســا فـــي سان برتلمي. كارثة الأسطول الإسباني. يولد ديكارت ويقول: أنا أفكر أنا موجود. حرب الثلاثين سنة. ثورة البرتغال. الحرب الأهلية في إنكلترا ثـــم إعـــدام شـــارل الأول. استقلال هولندا ثم تحاربها مع ذاتها على الوراثة. فـــتهاجمها فرنســـا. العثمانيون يحاصرون فيينا ويفشلون. فرنسا تحارب حلف أُغسبورغ. تركيا تتخلى عن المجر وترانسيلفانيا وكرواتيا. والسويد تهجم على روســـيا في نارفا. حرب الوراثة الإسبانية. الإنكليز يحتلون جبل طارق. تعود روســـيا لـــتهجم على السويد في بولتافا وتحطم ساعاتها.. الأمير أوجين ينتزع بلغـــراد مـــن الأتراك. وتتخلى تركيا عن صربيا للنمسا. حرب الشمال. حرب الوراثـــة البولونـــية. حرب الوراثة النمساوية. يولد غوته ويصلي الجمعة مع جـــنود الاحـــتلال الروســـي المســـلمين.. حـــرب الســـنوات السبع أو حرب المستعمرات بين فرنسا وإنكلترا. وتتخلى فرنسا عن كندا والهند. يولد بتهوفن ويعـــزف حتى يصاب بالطرش، ويقصف هيغل العالم بأفكاره المثالية. حرب روسية تركية. تندلع الثورة الفرنسية. إعدام لويس السادس عشر. حكم الرعب والإرهـــاب في فرنسا. تنقسم بولونيا على نفسها ثلاث مرات. حروب نابليون بونابـــرت فـــي كـــل الجهات وتقبيله لقَدم جوزفين بعد كل انتصار، ثم ينصب شـــقيقه ملكـــاً على إسبانيا، ويظل يحارب حتى يفشل في روسيا. فيولد كارل مـــاركس لـــيقول إن كل البلاء بسبب عدم المساواة في توزيع المال. ويموت

نابليون في منفاه. فرنسا تحتل الجزائر. حرب الكارليين في إسبانيا. الثورات تجتاح أوروبا: فرنسا ، ألمانيا، النمسا، المجر. حرب القرم.. حرب إيطاليا. حرب روسية تركية. تحالف فرنسي روسي. نوبل يخترع الديناميت ثم يندم حتى الموت. وتحلق أول طائرة في العالم سنة ١٨٩٧ لتكون كفاً للقصف في حروب العالم اللاحقة.

انظري.. تعود الإصبع الآن إلى أرض العرب حيث الدماء إلى الركب. اللخميون والغساسنة في الحيرة. ملوك كِندة في حضرموت. تأسست مكة. ملوك كندة في نجد والغساسنة يوالون البيزنطيين. حرب البسوس أربعين عاماً بسبب ناقة (قالت أختي: مخبولون) قلت: نعم.. (وواصلتُ): المنذر النعمان ملك على اللخميين وذو نؤاس يحرق النصارى في نجران. البيزنطيون ينفون المنذر بن الحارث آخر ملوك الغساسنة. إبرهة الأشرم يجهز حملة ليهدم مكة بقيادة فيل فتقصفه الأبابيل بحجارة من سجيل. ويولد النبي العربي محمد قائلاً للناس إن ربهم واحد وأبوهم آدم واحد وأن كل الناس أخوة، سواسية ، فيُغضِب هذا الكلام البيض والسادة ويقصفونه بالحجر. كسرى الثاني يقضي على اللخميين ويأسر النعمان بن المنذر. يهاجر محمد من مكة ثم معارك بدر، أحد، الخندق، يعود إلى مكة منتصراً. معركة حنين. يوصي الناس بالنساء والأطفال والحيوانات والشجر وينصحهم بالنظافة والتعطر ثم يموت، ليأتي من بعده أصحابه خلفاء يجتاحون الأرض بعد انتهائهم من حروب الردة. معركة أُجنادين، هزيمة البيزنطيين، فتح دمشق، معركة القادسية وهزيمة الفرس. معركة اليرموك وهزيمة البيزنطيين. الخليفة عمر في القدس يقول إن المساجد والكنائس وكل المعابد هي بيوت الله. فتح مصر. فتح فارس، معركة نهاوند، مقتل الخليفة عمر، فتح أفريقيا. اغتيال يزدجرد. انقراض السلالة الساسانية،

خلافــة الإمـــام علـــي مفـــتاح مدينة العلم، وقعة الجمل، وقعة صفين. بزوغ الخـــوارج. مقـــتل الإمام. الأمويون. عطش الحسين، مقتل الحسين في كربلاء (قالـــت أختي: أوه.. يا عيني عليه). الحجاج يذبح كل من يراه قائلاً: من أقتله بحـــق فهـــذا جزاؤه ومن أقتله ظلماً سيذهب إلى الجنة. وهكذا ظل يقتل ويقتل حـــتى مات.(قالت: مخبول). اجتاح المسلمون بلاد السند والأندلس وحاصروا القسطنطينية، وظهرت بينهم حركة المعتزلة. ثم اشتعلت معركة بلاط الشهداء، معـــركة الـــزاب حيث اندحار مروان الحمار ومقتله. (ضحكت وقالت: كيف ترضى الناس بأن يتزعمها حمار؟!).. انتهى الأمويون وولد العباسيون وأولهم الســـفاح فوصـــل عبدالرحمن الأموي مطروداً إلى قرطبة وصار أميراً عليها يجـــاوره الرســـتميون فـــي تاهارت بالمغرب، وأسس المنصور بغداد فجعلها العاصمة، دار السلام!، ومات فيها الإمام أبو حنيفة الذي كان قد تزوج عصراً حيـــن ماتت زوجته الأولى ظهراً وهو يقول أخشى أن أموت وأنا أعزب.. ثار المقنع في خراسان، وعقد البيزنطيون صلحاً مع العرب بأن يدفعوا لهم الجزية. وجاء هارون الرشيد ليخاطب الغيمة بأينما أمطرتِ في هذا العالم فإن خراجكِ عائد إليّ، لكن البرامكة كانوا يدبرون له المكيدة في الخفاء ففتك بهم. الأغالبة يحتلون صقلية، مات الإمام الشافعي. ظهور المرتزقة الأتراك. الأفشين يقضي علـــى بابك الخُرَّمي. مات الإمام ابن حنبل. الدولة الطولونية في مصر. الدولة الصفارية في فارس. مات الجاحظ سيد كُتاب النثر في الدنيا إثر سقوط مكتبته علـــيه.(قالـــت أختي: أوه.. يا حَرام.. مسكين). ثار الزنج في البصرة فقضى علـــيهم الموفق أخو الخليفة المعتمد. عبيد الله المهدي يؤسس الدولة الفاطمية. القرامطة يجتاحون مكة ويسرقون الحجر الأسود لأكثر من عشرين عاماً. قُتل المتنبـــي ســـيد الشـــعراء في الدنيا. جوهر يستولي على مصر. انقسامات إلى

طوائف في الأندلس. بنو هلال يغزون أفريقيا. طغرل بك يستولي على بغداد. فيموت شيخ المعرة سيد الوجوديين في الدنيا. المرابطون في المغرب. ألفونسو السادس يهاجم طليطلة. ثم يدخل معركة الزلاقة فيهزمه ابن تاشفين، لكن الصليبيون يهاجمون القدس وتمتد حروبهم قرنين في ثمان حملات مسعورة.. ويموت الغزالي في بغداد. الموحدون في المغرب والأندلس. الأيوبيون في مصر وسوريا، صلاح الدين يستولي على دمشق ولا يبتسم أبداً حتى يدخل معركة حطين ويستعيد القدس فيبتسم عندها ويموت بارتياح. ويموت ابن رشد شيخ الفلاسفة في الدنيا. العرب يتقهقرون في الأندلس ويموت ابن عربي سيد متصوفة هذه الدنيا. هولاكو يجتاح بغداد ويقيم بيادر من جماجم العراقيين ويصبغ دجلة بالحبر لكثرة ما ألقى فيه من كتب (هنا تنهدت أختي وعلقت: يا عيني على بغداد). قلت: وكل دجلة. (فأضافت: وكل طفولة دنيتنا الجريحة). معركة عين جالوت، المماليك يهزمون المغول. فيولد العثمانيون، المماليك يحتلون عكا وتنتهي الإمارات الصليبية في الشرق. تيمورلنك يجتاح بغداد، ويموت ابن خلدون سيد علماء الاجتماع في الدنيا. تسقط غرناطة فيبكي أبا عبدالله الصغير كالنساء على ما لم يستطع المحافظة عليه كالرجال وتبدأ محاكم التفتيش.. وما أدراك ما محاكم التفتيش!.

قلتُ لأختي:.. هل لاحظت؟.. كل القرى والمدن قاصفة أو مقصوفة.. أما التي لا هذه ولا تلك فلا ذِكر لها في التاريخ ولا أهمية. ثم نقلتُ سبابتي إلى آسيا بنيّة تعداد المذابح في إيران وأفغانستان والهند وباكستان وجنون جنكيز خان الذي وصل قصفه حتى بكين، معارك المغول والروس والعثمانيين والمجازر في البلقان و.. رأيت أختي ترفع يدها مطالبة بالتوقف. وقالت بصوت خفيض: أريد.. ماء.. بارِد.

اصفرَّ وجهها، غطته بكفيها، (داخَت).. ثم سقطت مغشياً عليها.

تاريخ القصف

(المجلد الثاني)

مراهَقة الدنيا

"ما المراهَقة إلا مطاردة لأسماء أشكال الغيوم على تضاريس الوقت."

محسن مطلك

هذا المجلد دوَّنه سفن لندكفيستSven Lindqvist في كتابه (تاريخ القصف) الصـــادر في آذار عن دار نيو بريس الأمريكية سنة ٢٠٠١ وعلى مدى ٢٠٨ صـــفحة. قـــرأتها وأنا أتقلب على ظهري وبطني والجانبين في السرير وعلى الكنبة. يتطرق لتاريخ القصف منذ سنة ٧٦٢ إلى سنة ١٩٩٩. تحدث فيه عن نفســـه، طـــبعاً، وعن عنصرية الاستعمار الأوروبي في القارة الأفريقية حيث "قاذفـــات الانقضـــاض" وصيحة "أبيدوا كل الوحوش". وما سفن لندكفيست هذا الـــذي يشبه العرب في بساطة الملبس وتكويرة الرأس وجلادة القلب والنظرات الحكيمة واللحية والشاربين، إلا سويدي ولد في ستوكهولم عام ١٩٣٢، وبينما كـــان في المهد يوزع ابتساماته الأولى بعد عام ويرفس الهواء بقدميه، أصبح هـــتلر مستشـــاراً لألمانـــيا. وما أن بدأ يتعلم الكلام حتى بدأت الحرب الأهلية الإسبانية، ثم اجتاح هتلر النمسا واحتل تشيكوسلوفاكيا وغزا موسوليني ألبانيا.. وتفجرت الحرب العالمية الثانية.

فـــي الساعة الثامنة و١٥ دقيقة و١٧ ثانية من صباح يوم ٦ أغسطس/ آب ١٩٤٥ أســـقطت الطائـــرة الأمريكية المسماة (..فَرَح؟) أو Enola Gay أول قنبلة نووية في العالم على مدينة هيروشيما اليابانية، فهمس طيارها حين رأى

فــوران الجحيم تحته:"أوه.. يا إلهي.. ما هذا الذي فعلناه؟". لقد انسلخت جلود الوجــوه وتدلــت مــثل مناديل مهلهلة حتى الصدور. لذا كان سفن يشعر بأن السويد جنة يسودها الأمان لأنها لم تتعرض للقصف في الوقت الذي كانت فيه الــنرويج وفنلــندا والدنمارك تئن تحت كَرَم الطائرات، وتتحول خضرة ألمانيا إلى أنقاض يلفها الغبار والدخان، فصار يشعر بالانتماء بشكل أكبر إلى سويده وهــو يستمع إلى أخبار المعسكرات المتحاربة، لكنه يريد أن يرى لا أن يسمع وحســب، لــذا فقــد غادر بلده لأول مرة وهو في الخامسة عشرة من عمره ليطوف في الدنيا، وكانت تلك هي أعظم خطوة أقدم على اتخاذها، كما يقول، فهــو أول فرد في أُسرته وفي أُسر الجيران يخرج من السويد، إذ لم يكن أحد مــنهم قــد غادرهــا من قبل. حمله فضوله، فحملَ حقيبته ورحل ليرى آثار القصــف فــي أراضي الآخرين، ممضياً طريق الرحلة بتذكر لعبة الحرب في طفولــته مــع أولاد الجــيران. كنا نقول: خذها.. ضربة عنيفة، أنت ميت لا محالــة، لقد نلتُ منك. كنا نلعب دائماً لعبة الحرب، مجموعة منا أو واحد ضد واحــد، أو حتى واحد بمفرده، ألعاب خيالية.. ولكنها دائماً لعبة الحرب، دائماً لعــبة المــوت. وأهلنا يقولون: لا تلعبوا مثل هذه الألعاب كي لا تشبوا عليها. كــان ذلــك نوعاً من التهديد ولم يكن أمامنا خيار أفضل. لا نحتاج إلى أدوات خاصة بالحرب، فأية عصا قديمة تتحول إلى سلاح في أيدينا وأي كوز صنوبر قديم يتحول إلى قنابل.

وبيــنما أقــول أنا: في البدء كان البكاء، يقول سڤن: في البدء كانت القنبلة. وكانــت تتكون من أنبوب البامبو. يُملأ بأي نوع من المتفجرات كالبارود الذي اخترعه الصينيون في مرحلة مبكرة من القرن التاسع عشر، وعند إغلاق هذا الأنبوب من الجانبين فإنه يتحول إلى قنبلة.

في يوم ١٠ مايو/آيار سنة ١٩٤٠ عُين تشرشل رئيساً للوزراء في بريطانيا وفـــي يوم ١١ مايو أعطى أوامره بقصف ألمانيا. كان قراراً عظيماً كما كتب قـــائلاً خبـــير القانون الدولي ووزير الحرب البريطاني جي. أم. سبيت: شكراً لذلك القرار، فالبريطانيون يمكنهم أن يسيروا اليوم ورؤوسهم مرفوعة!.

زار سفن ألمانيا ورأى مدناً كبيرة مترامية الأطراف، تعادل في حجمها لندن، قد تهدمت وتساوت بالأرض. كان ذلك في سنة ١٩٤٧ فقال: هذه تجربة مفيدة اكتســـبت مـــن خلالها المعرفة. وفي العام التالي سمع بخبر مقتل غاندي الذي كان يواجه عنف الإنكليز بالصوم والسلام. (أبي يشبه غاندي تماماً). أقام سفن مـــع عائلة بريطانية تنتمي إلى الطبقة العاملة في منطقة (سانت ألبانز) خارج لندن ففوجئ لدى اكتشافه بأن الاعتقاد الراسخ لديهم هو أن القنابل البريطانية لم تســـقط إطلاقـــاً على مدنيين، وإنما تقصف أهدافاً عسكرية فقط!. ولذا لم تكن رواياته لهم، كشاهد عيان يقول الحقيقة، لتؤثر فيهم.. يرى البعض أن ذلك كان ضرورياً لتحقيق (النصر)، فبريطانيا تسعى لحمل مواطنيها على الاعتقاد بأن كـــل ما تفعله صحيح ومُبَرر أخلاقياً.. وكذلك الأمر في ألمانيا. أما في السويد وفي الدول الأخرى (المحايدة) كسويسرا، فقد كنا نحصل على الأخبار من كلا المعســـكرين وبالتالي فإننا نعرف الكثير عن القصف الجوي.. وربما أكثر من الآخرين.. وإن كان نقل تلك الأخبار غير محايد.

وأضـــاف سفن: في ٢٥ يونيو/ حزيران سنة ١٩٥٠ وجدت نفسي في إحدى صالات العرض في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. كان ذلك قبل حصولي علـــى شـــهادة الثانوية العامة بسنة واحدة وكنت على وشك الالتحاق بالخدمة الإلزامـــية العســـكرية فـــي الخـــريف المقبل. لقد حصلت على منحة لدراسة العلاقـــات الدولـــية، وهذا ما دفعني للجلوس هناك والاستماع إلى قرار مجلس

الأمن الذي ينص على التدخل في الحرب الكورية.

كــبر ســفن وحصــل علــى شهادة الدكتوراه في تاريخ الأدب من جامعة ســتوكهولم، كمــا حصــل علــى شهادتي دكتوراه فخرية ؛ إحداها منحتها له الحكومــة السويدية، فقد أصبح من كتابها العالميين بعد أن أصدر ٢٥ كتاباً في السيرة الذاتية والرحلات والكتابة الوثائقية والمقالات المثيرة للجدل، خاصة ما يــتعلق منها بشؤون العالم الثالث "دول أمريكا اللاتينية وأفريقيا" بالإضافة إلى الصين، ومن أهم أعماله: (الظل)١٩٧٢، (الأرض والقوة في أمريكا الجنوبية) ١٩٧٩، (غواصــو الصحراء) ٢٠٠٠، و(تاريخ القصف).. هذا الذي يرى فيه بــأن أول قصــف جــوي بالطائرات قد كان سنة ١٩١١ حين شن الإيطاليون هجوماً جوياً بالقنابل على منطقة الواحات القريبة من طرابلس الليبية ثم توالى القصف على مدن مثل كوفنتري ودرسدن.. وهيروشيما.. وبغداد.

صار سفن كاتباً مشهوراً تتسابق الصحافة للقاء به ومن ذلك أن قابلته صوفيا هاريسون نائبة رئيس تحرير مجلة (غرانتا)، وهو لا يتذكر الآن فيما إذا كانت تلبس بنطالاً من الجينز أو تنورة قصيرة حين جلست أمامه ووضعت ساقاً على ســاق وسألته:"كتابك (تاريخ القصف) مكتوب بطريقة تشبه المتاهة، سلسلة من الروايات التاريخية التي تتطلب من القارئ العودة إلى الوراء ثم إلى الأمام مرة أخــرى.. لمــاذا اخترت هذا الأسلوب؟. فقال: هذه مسألة تتعلق بمفهومي عن التاريخ، فهو بالنسبة لي لا يشبه على الإطلاق شارع ذو عشر مجازات تجري فيها السيارات، وكل ما يراه الإنسان في البداية هو ما سيراه في النهاية عندما يعــاود الســير مرة أخرى من حيث بدأ، وإنما هو أكثر شبهاً بلعبة أو بمتاهة حيــث تشق طريقك بصعوبة.. خطوة باتجاه وأخرى بالاتجاه الآخر. والواقع أننــي استلهمت أسلوبي من لعبة كان يمارسها أصدقائي في الصغر حيث كل

ـــنهم يلعـــب دور الآخر، وبعدها صرت أكتب أعمالي على شكل مجموعات متسلسلة من الأحداث، ولكن الفرق فيما أكتبه هو أن القارئ يضطر للعودة إلى الوراء ثم إلى الأمام إلى درجة تنسيه المكان الذي توقف عنده، وهو بالطبع ما أستمتع به، كما استلهمت ذلك أيضاً من الكمبيوتر فالطريقة التي ننتقل فيها بين الملفـــات ومن صفحة إلى أخرى تشبه الأسلوب الذي أستخدمه في الكتابة. ما أتمناه هو ألا يفهم الناس التاريخ كنتيجة حتمية، وأن يدرك القارئ بأن التاريخ عُرضـــة للشـــك في حدوثه، لأنه وحتى لحظة حدوثه بالفعل، فهو غير مؤكد الحـــدوث، أليس كذلك؟، فلا أحد يعلم، في الوقت ذاته الذي يحدث فيه التاريخ، كيف ستصبح الأشياء في النهاية.

يـــبدأ ســـفن كتابه متذكراً لوحة لخوليو بيرنيه رسمها سنة ١٨٨٦ تبدو فيها مركـــبة فضـــائية تطـــوف بشـــكل مهيب فوق باريس عاصمة أوروبا، الحزم الملتهـــبة الضـــخمة، احتفالية الألعاب النارية الملونة تنير مياه السين، ضفاف الـــنهر، الجسور والواجهات والناس يحدقون في السماء بدهشة وطمأنينة. أما المشـــهد الآخر: مركبة فضائية هائلة، كالسابقة، تطوف فوق أفريقيا، وهذه لا تكتفـــي بالإنـــارة وحســـب، فباســـم حقوق الإنسان الواضحة للإنسان الأبيض المتمدن، كانت أسلحة المركبة الفضائية تبصق الموت على (المجرمين) السود الذين أطلقوا عواءً مرعوباً وهم يحاولون النجاة من النار القاتلة.

الطيار كالشرطي، والقنبلة كالهراوة.. هي فكرة قد سبق لـــ آر. بي. هيراني أن طورهـــا فـــي كـــتابه (الطائرات في السلم والحرب) سنة ١٩١٠.. غارات الحمـــلات التبشيرية والعقابية التقليدية تبدو مكلفة وتستوجب وقتاً طويلاً، بينما علـــى العكـــس من ذلك فإن عقاباً قاصفاً عبر الفضاء يمكنه أن يؤثر مباشرة وبتكلفة أقل بكثير. قنبلة هيروشيما كلفت أمريكا ٢٠٠٠مليون دولار بينما كانت

تكلفهـــا الحـــرب ٧٠٠٠مليون دولار شهرياً.. عدا الأرواح.. (برافووو).. لقد اخترقت أمريكا الحاجز الأخلاقي.

والتأثير الأخلاقي لأسلحة القصف الجوي في أراضي (المتوحشين) شيء لا يمكـــن تصـــوره ــ كما كتب هيراني ــ فمجرد ظهور آلة النقل الجوية يزرع الرعـــب فـــي القبائل، وعبرها أيضاً يتم تجنب الخسائر البشرية المؤلمة التي كانت تعانيها القطعات البيض عادة في هجوماتها البرية.

فالقصـــف يـــتدبر أمر عقاب موجع ورهيب، وعلى الرغم من كل شيء، فهو أكـــثر إنســـانية مـــن تلـــك الغـــزوات الـــبرية التقليدية لأن القذائف لا تمس الأبرياء(البيض) وإنما تصيب المذنبين(الملونين).. فقط.

قالت صوفيا:ــ هل أن ما تقصده في الفقرة التي تقول فيها بأن الجميع كانوا يـــنظرون إلـــى قـــدوم شيء كالقصف على أنه أمر حتمي الحدوث تماماً كما يتصور أي منهم تناوله لكوب حليب من الثلاجة، على الرغم من أن الثلاجة لم تكـــن موجودة في ذلك الوقت وإنما مما كنا نسميه الـــ"آيس بوكس"، والحليب لـــيس في علب كرتونية، لأنها لم تكن موجودة وإنما الحليب في الإبريق.. هذه هي الأشياء المسلم بها في ذلك الوقت..

قاطعها سفن لأنها تاهت في عباراتها وقال: ــ نعم، أردت بذلك إقناع القارئ بـــأن مـــا حدث في الماضي ليس من الضروري أن يكون هو نفسه ما يحدث الآن،(أعـــرف آخريـــن على قناعة بأن التاريخ يعيد نفسه!)، فعندما نعود إلى الوراء عادة ما نرجع بالفرضية التي تقول بأن الأشياء المحددة التي يشير إليها المـــؤرخ هي التي تختلف، أما بقية الأشياء فتتشابه، لكن الأمور كانت مختلفة فـــي الماضي حقيقة. وعليك أن تدرك بأنه كلما عدت إلى الوراء توجب عليك أن تتبع سلسلة معينة من التفكير، قائماً على أن كل ما يحدث من حولك ــ في

الماضـــي ــ مخـــتلف جداً عما هو عليه الآن، وأتصور أن القارئ سيمر بهذه التجربة عندما يقرأ الكتاب وفق بُنيتي وتنظيمي له.

حيـــن انتقلتُ من السرير إلى الكنبة كنت أقرأ الفقرة التالية: في سنة ١٩١٢ أرســـل الفرنســـيون ســـت طائـــرات لأداء مهمات بوليسية في المغرب، كان الطـــيارون ينـــتقون الأهـــداف الأكـــبر حجمـــاً كالقرى والأسواق والقطعان والمراعي، فبغير ذلك قد تتيه القذائف عن الهدف. وبعد عام من ذلك عندما بدأ الأسبان بقصف الجانب الذي استعمروه من المغرب. استعملوا قنابل من صنع ألمانـــي معبأة بالمتفجرات وبالكرات الفولاذية، قنابل مصنوعة قبل الاحتراف، حيث لم تكن الغاية هي الدقة في إصابة الأهداف وإنما إحداث أكبر قدر ممكن مـــن التدمـــير وقتل المتوحشين، وبالتالي المحافظة على أكبر عدد ممكن من أرواح البيض.

أنزلـــت صـــوفيا ســـاقها عـــن الأخرى وسألته: ــ وهل كان كتاب (تاريخ القصف) أكثر صعوبة في كتابته بالمقارنة بأية كتابة عادية؟.

فأجـــاب: ــ فـــي الواقـــع أنا معتاد على الكتابة بهذا الشكل.. أي على كتابة فقرات أو فصول قصيرة يناقش كل منها نقطة معينة. ربما كنت متأثراً في ذلك بنيتشـــه لأن أغلب كتاباته بهذا الشكل، كما تأثرت أيضاً بالكيفية التي تُكتب بها تقاريـــر الـــبرلمان البريطاني المؤلفة من عدة فقرات قصيرة تطرح كل منها مســـألة واحدة فقط، تتم مناقشتها قبل الانتقال إلى الفقرة التالية.. ولكنها ممتعة فـــي النهاية، ويوجد في حوزتي عدد كبير من المقاطع القصيرة، ولكي أجري علـــيها التعديلات النهائية اللازمة لبنائها أستغرق بعض الوقت.. لقد كان عملاً باعثاً على الشعور بالبهجة.

فـــي الوقت الذي كان فيه سفن يتحدث لصوفيا عن بهجة الكتابة، كنت أشعر بالمــرارة وأنـــا أقــرأ مـــا حدث لمحمد عبدالله الذي يسميه أعدائه بـــ(الملا الغاضب) في ١٩١٧ وهو جزء ضمن قائمة أسد الاستعمار البريطاني.. تكفل الطيران الإنكليزي بتصفية الحسابات مع ملاّ الصومال.

لـــم يـــر محمـــد عبدالله طائرة في حياته ولا حتى قنبلة، لذا فلا شيء يقلقه، وبحكـــم العـــادات والتقالـــيد يتقدم لاستقبال زائريه مرتدياً أحسن ثيابه، مُحاطاً بأقـــرب المقربيـــن إليه في حاشيته واقفاً أمام بيته، وتحت مظلة رواقه يحتفظ بأفضل ما عنده للمناسبات المهمة ولاستقبال المبعوثين إليه من الأجانب.

أول قنبلة، تقريباً، وضعت النهاية للحرب حيث قتلت أقرب القريبين من الملا محمد، وفي القصف الثاني قتلت شقيقته وآخرين من أفراد عائلته وأقاربه بينما هـــم يحاولون الفرار صوب الصحراء مثل حيوانات مذعورة.. وهكذا إلى أن استسلموا في نهاية الأمر.

دام القصـــف أســـبوعين وليس سنة، والتكلفة الإجمالية كانت ٧٧٠٠٠ جنيه إســـترليني، مـــبلغ لا قـــيمة له على الإطلاق إذا ما قورن بما كان يحتاج إليه الجيش كي يقوم بهذه المهمة.. لذا فقد كان تشرشل سعيداً.

والبريطانـــيون مثل أية قوة استعمارية أخرى، ظلوا لأعوام طويلة يقصفون رعاياهم العنيدين في مستعمراتهم مبتدئين سنة ١٩١٥ بالجهلة من سكان منطقة الشمال الشرقي للهند.

حولت صوفيا مؤخرة القلم التي كانت تعض عليها متظاهرة بالتركيز على ما يقوله سفن ووضعتها على صدغها الأيمن بالشكل الذي يضع فيه المسدس من يـــنوي الانتحار، موحية بأنها كانت تشدد من تركيزها وهي تقول: ــ بمناسبة عـــدم الحـــياد فـــي نقـــل أخـــبار الـــدول المتقاصـــفة، فإن أحد الأشياء التي

صـــدمتني(صوفيا هي التي قالت "صدمتني" أما أنا فلم تصدمني) أثناء قراءتي لكتابك هي رواياتك التي تتحدث عن الزيارات التي قمت بها لعدد من المتاحف العســكرية البريطانية وملاحظاتك حول إغفال عرض أي شيء يتعلق بقصف المناطق السكنية!.. الواقع أنني قد فوجئت (أنا لم أفاجأ) بهذا الشيء لأنني كنت أعــتقد بأن رؤية التاريخ من وجهة نظر الضحية قد تحولت في يومنا هذا إلى ممارسة مقبولة..

فكــر سفن، نظر إلى السقف، وطرد ذبابة حطت على أنفه، ثم أنزل نظره وقال:ــ صحيح أنه ثمة الكثير من المؤرخين الذين كتبوا عن القصف وانتقدوا أســاليبه وتبنوا وجهة نظر المدنيين في تناوله. ولكن مشاهدة مثل هذه الوقائع فــي المــتاحف شــيء مختلف. لأن المتاحف رسمية فترى فيها أشياء كالتي تشــاهدها علــى شاشــة الــتلفزيون، مُعدة لاطلاع الجميع. فللمتاحف إمكانية الوصـــول إلى الناس أكبر مما يفعله الكتاب. لأن الكتاب أنت من يقرر فيما إذا كنــت تــريد قراءته أم لا، فيما تقصد المتحف لأنه جزء مما تقوم عليه ثقافتك وتعليمك.. وأطفالنا الصغار يذهبون إلى هناك برفقة معلميهم.. وهكذا.

فــي ســنة ١٩١٦ قصـــف البريطانيون الثوار المصريين وسلطان دارفور المــتمرد في شرق السودان، وفي حزيران ١٩١٧ قمع البريطانيون تمرداً في مــنطقة مســعود علــى الحدود الأفغانية. وفي ١٩١٩ خلال الحرب الأفغانية الثالثة، قصف زعيم الكتيبة البريطانية آرثر هاريس داكا وجلال آباد وكابول.. ثم قال في مذكراته بأن مجرد قنبلة من وزن ١٠ كيلو غرام مقذوفة على قلعة الملــك الأفغانــي قــد قــررت نهاية الحرب. حينها كان المصريون يطالبون بالاستقلال فتدخلت القوات الجوية الملكية بثلاث كتائب من أجل السيطرة على الثائريــن. وفي سنة ١٩٢٠ قصفت بريطانيا إيران في محاولة منها لإخضاع

الـــبلد لـــتاج بريطانيا العظمى. كما قضى البريطانيون بالقصف على ثورة في الضفة الغربية وقتلوا ٢٠٠ فلسطينياً.

لقـــد انتهت أسئلة صوفيا أو نسيت بعضها، لذا كانت تسأل بما يطرأ لها أثناء الحديث وقالت: ـــ هل قمت بزيارة متحف ما، يعرض وجهة نظر الجانبين؟.

فأجابهـــا ســـفن دون تأخير:ـــ في الواقع أنني لم أر المتحف المثالي في أي مكـــان مـــن العـــالم أو حتى الموضوع المثالي.. بالتأكيد أن المتاحف تعرض مشـــاهد القصـــف كما تصورها وجهة نظر الضحايا ولكنهم في الوقت ذاته لا يفعلـــون ذلـــك كقـــاعدة عامة تترتب عليها وجهة نظر الطرف الآخر. وبهذه المناسبة فأنا أتذكر متحفاً يابانياً بعينه، متحف هيروشيما، إنه لا يعرض مشاهداً للقصف الياباني للصين وقصف اليابان لـــ "بيرل هاربر".. فاليابانيون ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم وحدهم الضحايا، وعلى الرغم من ذلك فأنت ترى بعض الاســـتثناءات، لأن هـــناك متاحف يابانية تحاول إصلاح وجهة النظر هذه، في أوســـكا مـــثلاً حيـــث أزيلت تماماً آثار القصف الأمريكي ويوجد فيها متحف يعرض هذه الحقائق ويدينها كجرائم حرب، ولكنه في الوقت نفسه يدين الحرب التي شنتها اليابان على الصين.. وهكذا فهم يسعون إلى موضوعية وتوازن في وجهات النظر.

نهضـــت صوفيا وشكرت سفن على كرمه هذا بالسماح لها بمقابلته، صافحته وأكدت بأنها ستبعث له بنسخة من المجلة عند نشر اللقاء ثم.. لا يهمني الأمر فقد وصلت إلى الفقرة التي يذكر فيها العراق، فأشعلتُ سيجارة كي أركز على مـــا دوّن.. لقـــد كتب الكثير لكنه لم يقل كل شيء، لذا بقيت هكذا أقرأ فقرات وأتذكـــر أخـــرى.. أتذكر فقرات وأقرأ أخرى، مازجاً بعض ما ذكره سفن بما أذكره أنا: بعد مرور عشرة أعوام على أول قنبلة جوية تحوّل الأمر إلى مسألة

روتينـــية، ومع ذلك ففي العراق كان الأمر مختلفاً تماماً فقد أطلق البريطانيون شعار: (سيطرة بلا احتلال)!!.. لذا كان أبي يردد دائماً: كل مصائب العالم من تحـــت رأس الإنكليز. وهو يسمي كل الغرب إنكليز. لقد كان نحيفاً على فراش المـــوت، شبيهاً بغاندي تماماً، سمع عبر المذياع بخبر عن الإنكليز فرفع رأسه عـــن الوسادة وقال: لماذا؟ سلبوا أراضينا ولم نسلب أرضهم، سرقوا نفطنا ولم نسرق نفطهم، اغتصبوا نساءنا ولم نغتصب نساءهم، جوَّعوا أطفالنا ولم نجوِّع أطفالهم، قصفونا بطائراتهم ولم نقصفهم بطائراتنا.. لماذا لا يكفون أيديهم عنا ويتركوننا نموت بسلام، (نظر إلي فأضاف) ويتركون أولادنا يعيشون بسلام.

كلما تذكرت مشهد أبي هذا تخيلت ملايين من الرجال المحتضرين في بلاد العـــرب وبـــلاد الهـــند والسند، أفارقة وآسيويون يشبهون أبي تماماً، لذا فهم يشبهون غاندي أيضاً، وهم يسألون السؤال ذاته، ثم يموتون بلا إجابة.

في يوم ٨ ذي القعدة سنة ١٣٣٨ هجرية قصف الإنكليز مسجد الكوفة فقتلوا أكـــثر مـــن عشـــرين ناسكاً، كلٌ في محرابه، وهدموا المسجد على نساء كن يصـــلينَ خلـــف الســـتارة البيضاء وأطفال كانوا يلعبون في الصحن تحت ظل المـــنارة. وفـــي ٢٦ تشـــرين الثانـــي ســـنة ١٩٢٠ قال البلاغ البريطاني في الإذاعـــات:"هجمـــت الطـــيارات على أبو صخير وعلى الحيرة في ٢٣أكتوبر وقذفت عليها طنين ونصف من القنابل ففتكت بهما".

وفـــق المـــبادئ والقـــيم والأعراف والأخلاق والاتفاقيات والسوالف الدولية والإنســـانية والحضارية والقانونية وما يتعلق منها بالحروب، يجب أولاً تحذير الســـكان المدنييـــن قـــبل الشـــروع بأي قصف. حيث، تستثنى البيوت كأهداف للقصـــف، وإذا تم اعتبار بعض البيوت والقطعان والثوار أهدافاً فيجب استثناء الشـــيوخ والنســـاء والأطفال.. ولكن الواقع يختلف عن كل هذه المبادئ تماماً.

فـــأول تقرير قرأه تشرشل عن بغداد يصف هجوماً جوياً قد أشاع الرعب في العوائـــل:" الكثـــيرون مـــنهم كانوا يحاولون الهرب قاذفين بأنفسهم إلى الماء فيـــتحولون بذلك إلى أهداف واضحة للرشاشات الجوية". يحك تشرشل أنفه ثم يعـــبر عـــن رغبـــته في ألا يستلم مرة أخرى تقريراً من هذا النوع قائلاً:" لقد أوقعنـــي فـــي حيرة كبيرة المشهد المكتوب حول القصف، والذي أشرتُ عليه بالأحمـــر، إن نشره لن يُشرف القوة الجوية (...) ولذلك فإن إطلاق الرصاص علـــى النســـاء والأطفـــال الذين يلوذون بمياه نهر أو بحيرة كملجأ لهم يُعتبر فضـــيحة، وأســـتغرب أن هـــذا الأمـــر لم يتم التقدم به وعرضه أمام محكمة عســـكرية تقاضي هؤلاء الموظفين على أفعالهم هذه!".. لقد كان تشرشل، في الحقـــيقة، يطالب بالنتائج فقط ولم يكن يرغب بمعرفة كيف تم الوصول إليها. معادلة يتصف بها كل السياسيين ولخصها السادات بقوله لعبدالسميع، فيما بعد، وهما يحيطان، مع مجموعة من الجدعان صحناً من الفول، داعياً إلى الانفتاح: افعلوا كل شيء.. افعلوا كل شئ من خلف ظهر الحكومة.

فـــي ١٨ أيلول ١٩٢٠ أجبر الثوار العراقيون حمد وحمود ومحمد ومحمود وســـعد ومسعود وجدي وجدك من النشامى الحفاة إحدى الطائرات البريطانية علـــى الهبوط قرب الفلوجة، فلم يعرفوا ماذا يفعلون بها، لذا حطموها بعصيهم وفـــالات صيد السمك وأخذوا مَن كان فيها من الإنكليز أسرى/ضيوف، قدموا لهم الدهن الحر والدبس ثم ذبحوا لهم أكبر كبش، أكلوا جميعاً معاً في مضيف الحـــاج خضير حتى شبعوا ثم طافوا باستكانات الشاي وسجائر اللف، فيما كان حديد الطيارة يعلق بدشاديش الأطفال اللاعبين فوق حطامها.

في شباط من سنة ١٩٢٣ تم تعيين الإنكليزي تشارلتون Lionel Charlton رســـمياً ووصل تواً إلى بغداد ثم زار مستشفى الديوانية، وكان يتوقع أن يرى

هــناك حالات مرضية كالإسهال والجرب وكسور سيقن وأذرع وما إلى ذلك، لكنه وجد نفسه فجأة أمام مجزرة هجوم جوي بريطاني.

الفــرق بيــن هراوة شرطي وبين قنبلة يتجلى واضحاً للعيان بشكل وحشي. وبمـــا أنه موظف حكومي يتعامل مع حرب أو قمع ثورة مفتوحة، لم يعبر عن اعتراضه بشكل مباشر فكتب:"لكن هذا القصف بشكل أعمى على مناطق سكنية يشكل مخاطرة في قتل نساء وأطفال.. إن فيه شيئاً من القتل المجاني".

بعــد مضي وقت قليل شيخ عراقي آخر يقوم بإشعال ثورة أخرى ولابد من معاقبــته، وليس من السهل الوصول إليه والقيام بقصفه من ارتفاع ألف متر.. فهل على مدينة بأكملها أن تدفع ثمن جرائم رجل واحد؟(الثورة ليست جريمة يا ســفن السويدي) وبأي حق؟.. ومن جهة أخرى: هل حقاً هو مجرم وتحريضه علــى الــثورة والاستقلال لبلده يعتبر جريمة؟(آهاه.. هكذا، هسه تمام، اجلس أعــوج وتكلم عدل). إن القيام بقصف مدينة بأكملها على هذا الأساس سيحمل كــل سكانها على مضاعفة الكراهية والحقد تجاه البريطانيين.. ولكنهم فعلوها في بدايات القرن العشرين مثلما كرروها مع نهاياته بالاشتراك مع أمريكا حين قصفوا العراق كله بحجة معاقبة رجل واحد لم يصيبوه ولو ببصقة!.

وهكــذا قصـــف البريطانيون الشيخ الثائر وقتلوا عشرات النساء والأطفال. تشـــارلتون لـــم يعد يحتمل أكثر من ذلك، فطالب بقبول استقالته لأسباب تتعلق بتأنيب الضمير، فبعثته القيادة العامة إلى إنكلترا حيث ستتم إحالته إلى الاحتياط سنة ١٩٢٨.

قـــال سفن: إنه (أبو حنيفة)، مُشرع مهم ومؤسس لمدرسة ومذهب تشريعي، كـــان أول مـــن منع قتل النساء والأطفال والشيوخ والمرضى والرهبان وكل الذين لا يقاتلون(لم يأت أبو حنيفة بهذا التشريع من جيبه يا سفن، وإنما ذلك في

عقـيدة الإسلام منذ بدايته).. كذلك يدين العنف واتخاذ الرهائن، لا نعرف عنه الكثـير عـدا كونه قد سجن سنة ٧٩٢ بعد محاولته القيام بثورة ومات بعدها بخمســة أعوام في سجنه.(لا يا أخ سفن، أبو حنيفة ولد في الكوفة ودرس فيها وأفـتى، استدعاه المنصور لتولي القضاء في بغداد فرفض فحبسه إلى أن مات سـنة ٧٦٧). وهكـذا فـإن الجانب الأخلاقي الذي عناه تشارلتون كان قد تم تشريعه في العراق قبل وقت طويل من وصول المدنية إلى الجزر البريطانية، ففي القرن الثامن الميلادي عندما اجتاح الإسلام الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وعندما راح يتسرب إلى أوروبا عبر مسالك مختلفة، وفي أيام ازدهار واتساع تأثيراته، قام مُشرِّع من بغداد بمحاولة لأنسنة الحرب، واضعاً لها قواعد سيتم الانتـباه إلـيها والاتفاق عليها بعد قرون في أوروبا، ولكن لا يتم الالتزام بها دائماً.. أو على الأقل لا يتم تطبيقها على الشعوب الملونة.

دار الإنكلـيزي حـول الشيخ شعلان أبو الجون متبختراً ببزّته العسكرية، عـيون الضـابط اللندنـي خضراء سرقت لونها من طحالب أهوار العراق، وكلماته صفراء مثل ابتسامته حين قال للشيخ: لماذا ترجف؟. فعدل أبو الجون عقالـه وقـال بكـل الـثقة بالنفس، وبساطة أهلنا، وكبرياء شيوخ العشائر أو أصحاب الحق:"أرجف ما أرجف.. هذا أنا".

البريطانـيون ليسـوا هـم الوحيدون الذين قاموا بقصف مستعمراتهم حتى أجبروها على الركوع، فقد أبدى الأسبان وحشية تفوقهم في المغرب، ففي ٢٩ حزيـران من ١٩٢٤ قامت عشرون طائرة إسبانية بقصف ضواحي تطوان، أمطـرت علـيها ٦٠٠ قنـبلة تسببت في إزهاق الكثير من الأرواح.. غارات الطائرات، أطارَت البيوت في الهواء، أحرقت الحقول ورشت قرى كاملة بغاز الخردل.

وبما أن معاهدة جنيف لسنة ١٩٢٥ تمنع استخدام الغاز، ففي صيف ١٩٢٥ طلب الصليب الأحمر تفويضاً كي يبعث مختصين إلى مسرح العمليات بهدف تقصـــي الحقــائق حـــول اتهامات استخدام الغاز فرفض الأسبان، ومقابل ذلك اســتقبلوا بــأذرع مفــتوحة اثنين من القادة العسكريين الألمان، جاءوا بهدف اكتساب خبرة عملية في كيفية استخدام الغاز في الهجومات الجوية.

آنــذاك تفجــرت ثورة شعبية شامية ضد الاحتلال الفرنسي، فشن الفرنسيون غارات عنيفة وواسعة على مدن حما وصيدا وركزوا جحيم قصفهم على أحياء المســلمين في دمشق. لذا انطلقت المناقشات في ١٨ تشرين الأول من ١٩٢٥ حول هذا الأمر، فقد مات في هذا القصف أكثر من ألف شخص.

احــتج الســوريون وهم يشيرون إلى قوانين الحرب، التي تمنع قصف المدن والأحــياء السكنية التي لا وسائل لديها للدفاع عن نفسها.. وبعد دراسة القضية مــن قبل القاضي الأمريكي Quincy Wright المختص بالحقوق والقوانين الدولية، خرج بنظريتين: حسب الأولى: إن سورية هي نموذج لكل المجتمعات غــير الأوروبــية وهي بذلك تقع على هامش القانون الدولي، وأيضاً وفق هذه الــنظرية توجد ثلاثة أصناف من الإنسانية: المتحضرة والبربرية والمتوحشة. والقانون الدولي لا يعترف إلا بالإنسانية المتحضرة.

وحســب نظــرية أخرى: لا يمكن تطبيق القانون الدولي فيما يتعلق بقصف فرنســا لدمشــق وذلك لأن تدخل فرنسا في سورية يعتبر من الشؤون الداخلية الفرنســية وإن كانــت ســورية لا تمــثل جزءاً من فرنسا (حيث كان وجود الفرنســيين في سوريا كوجود الإنكليز في العراق) أي أن وجودهم هو انتداب وليس استعمار وما هو إلا استجابة لرغبة الأمة السورية أو الأمة العراقية!!.. وهكذا فإن التمسك بالسيطرة يعتبر جزءاً من هذه المهمة.

.. والقــنابل التي وقعت على أثيوبيا كانت شبيهة بتلك التي رميت على العراق أو المغرب أو... في كانون الأول سنة ١٩٣٥ راح القاصفون يستخدمون الغاز المســيل للدمــوع أيضاً، وفي كانون الثاني استخدموا غاز الخردل. لقد رآها Gunnan Agge قطــرات ســائله تشــبه الزيت، تنتشر متسعة مثل منديل عــريض حــول فوهــات البراكيــن التي تخلفها القذائف "وعندما تلامس هذه القطــرات الجلود العارية، السيقان أو أذرع الجنود تتحول إلى فقاعات ودمامل ضــخمة علــى الجلــد، تصيبهم بالعمى ونصف اختناق، فيبتعدون مواصلين تــرنحاتهم فــي الأحــراش، يسقطون على الأرض ويبقون هناك حتى يجدهم رفــاقهم، وعــدا هذه المواصفات لهذه القنابل فإن الأعشاب وأوراق الأشجار المرشوشة بهذه القطرات تأخذ بالاصفرار والذبول..".

في أيار ١٩٣٦ يحتل الإيطاليون أديس أبابا ويعلن موسوليني نهاية الحرب. في ٣٠ حزيران ١٩٣٦ أمام هيئة الأمم، يطلق الإمبراطور المنفي Haile Selassie آخر نداء إلى ضمير العالم:" إن الحكومة الإيطالية لم تعلن الحرب علــى الجنود وحسب، فقد قصفت بوحشية المناطق السكنية البعيدة عن ميدان العملــيات بهــدف إشــاعة الرعب وإخضاعهم.. لقد ركّبوا مرشات غاز في الطائــرات كــي يحدثوا زخات واسعة من المطر الناعم للسموم المميتة.. منذ نهايــة كانون الثاني ١٩٣٦ راح المطر المميت ينهمر بلا توقف على الجنود، النســاء، الأطفال، الحيوانات، الأنهار، البحيرات والحقول.. إنه أسلوب رهيب قد أعطى ثماره.. لقد مات بشر وحيوانات ونباتات. إن الذين طالهم هذا المطر كــانوا يفرون بلا اتجاه وهم يصرخون من شدة الألم، والذين شربوا من الماء المسموم أو أكلوا من الأطعمة الملوثة بالرعب المميت.. ماتوا وهم يتلوون من شدة الوجع".

لكــن كلمـــة الإمـــبراطور هـــذه قد ضاعت وسط ضجة صفير الصحفيين الإيطاليـــن. بعـــد أربعة أيام من ذلك، اعترف المجتمع الدولي بالهجوم على أثيوبـــيا ورفع العقوبات عن إيطاليا.. والناس في روما يلعقون الآيس كريم في الشوارع.

قـــال سفن: وبعد مرور ٢٥ سنة (تلتها وستتلوها سنوات أخرى).. على أول هجـــوم بالقنابل جواً، ظل المقصوفون هم دائماً: الأفارقة والعرب والآسيويون. بيـــنما نحـــن الأوروبيون مازلنا نتأمل الطائرات في السماء بهدوء وطمأنينة، ويقيـــن مـــن أن شيئاً لن يصيبنا، ذلك لأننا متحضرون: أليس كذلك؟. والآن، حسناً، تحت هذا الهدوء السطحي يتحرك الكابوس، أشباحنا تغيّر نوعها.. بينما نحـــن نواصل قصفنا واقعياً ضد عرقيات أخرى، لدينا كوابيس نكون فيها نحن أنفسنا مذعنين وملتصقين بالقصف.

أنهيـــت قراءة كتاب (تاريخ القصف) لسفن، ولم أجد فيه تفاصيل عن قصف حكوماتـــنا لـــنا، علموا جبابرتنا القصف فقصفوا حمص وحما ومعان والنجف وكـــربلاء وحلبجة و.. آه.. حلبجة أيها الجرح الذي انفتح في الربيع ١٦ آذار ١٩٨٨ولـــن يـــندمل، رمـــت طائرات بغداد خردلها فقتلت ٥ آلاف كردي مع دجـــاجهم وورودهـــم، وبعث لي خالد كاكي "رسالة متأخرة من حلبجة" تقول:" الطـــيور الحديديـــة الشـــوهاء/ ألقت عليهم/ هداياها الثقيلة../ مغمورين بالألم المغلّـــف/.. عادوا إلى الأبد". وفي أنفالها مسحت حكومة بغداد ٥٠٠٠ قرية، مـــنها ٢٨١ تعرضت للقصف الكيمياوي في كردستان خلال عاميّ ١٩٨٧-١٩٨٨ . وفي الساعة الثانية والنصف بتوقيت بغداد في ليلة ١٦ــ ١٧ كانون الثانـــي ١٩٩١ هبت العاصفة وهطل قصف التحالف على بغداد.. جحيم ذكَّر هيروشـــيما بجحيمها فبكت على بغداد. وأحرق ياباني نفسه في حديقة الحرية

احـتجاجاً علـى ضـرب العراق، لكن أمريكا، وفي ١٣ شباط ، قصفت ملجأ العامـرية (الذي بنته شركة فنلندية ثم أعطت خرائطه لأمريكا) فقتلت فيه أكثر مـن ٤٠١ بني آدم منهم ١٤٢ طفل بغدادي، دخل الصاروخ من نافذة الهواء وتـبعه آخـر فوصلت درجة حرارة الانفجار إلى ٤٠٠٠ درجة، فيما قصفت الطائرات البريطانية في ١٧ شباط ، سوق الفلوجة وقتلت ١٣٠ عراقياً جارحة ٧٠ غـيرهم، اصطبغت مشترياتهم وأرغفة الخبز بدمائهم وعصير الطماطم. قوات حلف شمال الأطلسي ضمن قوات (حفظ السلام) استخدمت قذائف مزودة باليورانـيوم المُنضّـب في البوسنة وكوسوفو، مثلما سبق وأن استخدموها في العراق وتسببت بأكثر من ١٢٠٠ حالة تشوه ظلت تتناسل حتى اليوم وإصابات بسـرطان الـدم (اللوكيمـيا)، أنزلوا على رؤوسنا حاويات مطلية باليورانيوم المنضب. فقال البروفسور الأمريكي دوج روكيه المتخصص بعلم الفيزياء بعد أن شـارك فـي العاصفة: إن بعض المناطق مثل جنوب العراق لم تعد تصلح لحياة الإنسان ولا الحيوان بعد القصف الذي تعرضت له ممزوجاً باليورانيوم.. (فأين سنعيش إذاً.. يا أولاد القحبة؟). إسرائيل تقصف لبنان بعنف في حزيران ١٩٨٢ ولا تكـف عـن قصفه. أمريكا تقصف مصنع أدوية شفاء الفقراء في الخـرطوم سـنة ١٩٩٨، ثم قالت أخطأنا.. وكم أخطأت في أفغانستان.. وإلى متى/كم ستخطئ الطائرات!..

لـم أجـد، فـي كتاب سفن، إشارة إلى مقتل ابن عمي وأولاد خالتي تحت القصف، وساق جارنا التي بحث عنها بعد ابتعاد الطائرات ولم يجدها، ونعاج الراعـي الكـردي فـي الخـابور، ولا مـا حدث للناقة مسعودة في عاصفة الصحراء، ولمبنى المحكمة في كركوك، ولجلال الأفغاني، ولأمي في غرفتها، وأطفال فلسطين.. فرفعت سماعة الهاتف واتصلت بصوفيا في مجلة (غرانتا)،

قالـــت: اســـمي ســـوفي وليس صوفيا، ولا أعرف عن أية مقابلة تتحدث؟ فقد أجريـــت عشرات المقابلات في حياتي. قلت لها: سفن السويدي صاحب كتاب تـــاريخ القصف. قالت: في كل الأحوال لا أستطيع أن أعطيك عنوان أحد دون إذنـــه. ثم أغلقت الهاتف. فاتصلت بدار النشر كي تعطيني عنوانه، من أجل أن أضـــيف له مـــا أعـــرف في الطبعة الثانية أو الجزء الثاني أو آخذ منه الإذن بـــترجمة كتابه على طريقتي.. فلم يجيبوني.. انتظرت طويلاً.. طويلاً.. حتى مللـــت ولـــم يجيبونـــي. كان مذياع الجارة، لحظتها، يتحدث عن قصف جديد لطائـــرات أمـــريكا وبريطانيا على العراق.. فقلت: لا أحد يسمع أحد في هذا العـــالم.. الكـــل يتحدث، الكل يقصف الكل. ثم حملت الكتاب ورميته في سلة زبالة المطبخ.

تاريخ القصف

(المجلد الثالث)

شيخوخة الدنيا

"شابت أركاني.. وما ضيمي إلا الساكت"

كاظمية مطلك

أختـــي الصغيرة تحب أكل البيض المسلوق، فكنت أحرك لها بيضة اليوم في صـــحن الماء فوق المدفأة، لذا كانت تفكر بالبيضة وليس بالدنيا حين استفاقت وسألت: ألم تنضج الدنيا؟.

قلت: لا.. فلو أنها نضجت لكفت عن التقاصف.

ما كان ينبغي لنا أن نحشو رأسها النظيف بمقابر ذاكرة الأرض، لأن ارتكاب حمل ذاكرة ثقيلة يعجل بالشيخوخة. أنا أقرأ لها تاريخ الحروب الذي دلني عليه أبـــي، وهـــو المدمن على سماع أشرطة خطب الشيخ عبدالحميد كشك ، كان يقَـــرِّبها إلـــيه ويحفظِّها أشعاره. فكرتُ أن أجلب لها كتباً أخرى عن حكايات الســـندباد، الأميرات النائمات، حوريات البحر، القراصنة العشاق.. ولكن تلك أيضـــاً تعج بالمبارزات، فلأجلب لها إذاً كتباً نافعة تعلمها الطبخ.. لكن الطبخ سيقودها إلى لحم الحيوانات المذبوحة.. سأفكر إذاً بكتب أخرى كتاريخ الحياكة أو تنسيق المزهريات.. شيء آخر يبعدها عن أسئلتها الواسعة لنا.. عن أسئلتنا لبعضنا ولأنفسنا:

.. مـــاذا ســـيحدث غداً؟ هل سيظل الحال على ما هو عليه.. حيث يستمر تواصـــل قصـــف أهـــل الأرض بعضهم لبعض، يتحالف بعضهم ضد بعض،

ويسكت آخرون على ظلم بعضهم لبعض؟. لم نكتف بالطائرات كحاملات للقذائف وإنما أجبرناها على الانتحار أيضاً نطحاً لرؤوس ناطحات السحاب.. هل سيواصلون تطوير أسلحة القصف لتصبح أكثر دقة وأشمل تدميراً، فبعد الفأس والسكين والخنجر والسيف والهراوة والرمح والقوس والنشاب والمسدس والبندقية والمدفع والدبابة والراجمة.. قنابل أخرى ثقيلة وأخرى مشعة وأخرى نابالم جارقة وأخرى مزدوجة وأخرى عنقودية، فراغية، ذكية، نووية، هيدروجينية، كيميائية، جرثومية وأخرى.. لمن؟ لماذا؟ على ماذا؟.. هل سيتمكن رجل مجنون من شراء إحداها من سوق الأحد ليقذف بها جاره؟. هل سيصبح القصف أكثر (إنسانية) وأكثر خبثاً؟.. حيث القنابل المسيلة للدموع والأخرى المسيلة للضحك والأخرى المعبأة بالغائط وبرائحة عفونة لا تطاق فتُخرج أشد المقاتلين الأفغان من جحورهم الغائرة في الجبال. والقنبلة المنوّمة التي ستجعل جنود جيش الأعداء يشخرون لساعات نتمكن فيها من القبض عليهم والتصرف بعدها بمصيرهم على هوانا.. دون قتل.. والقنبلة الألكترونية التي تعطل كل شيء.. بما في ذلك ساعة الحائط وساعة اليد التي جاءتك هدية في عيد ميلادك.. حروب نظيفة بلا جثث على الشاشة أثناء متابعتنا لها ونحن نتناول طعامنا.. هكذا بحيث تتحول الحروب إلى ألعاب سحرية غير مفهومة مثلما ابتدأت.. ماذا إذاً؟.. هل سيستمر القصف أم يتوقف؟. هل ستأتيك المتفجرات عبر أسلاك الهاتف والكهرباء وفايروسات الإنترنيت؟.

ربما قالت أختي: كفانا جَلداً لأمنا الأرض وتثقيباً لها بالصواريخ.. أشهد بأن القصف فعل جبان.. أما إذا كان حاجة، فكم من حاجة قضيناها بتركها!.. هل سيستمر السكوت على ارتكابات القصف أم ستتم مواجهته بقصف من الاحتجاجات الإنسانية؟.

مـــا كـــان لي أن أجيبها بما أعتقده فعلاً: لا يا أختي ان يتوقف القصف أبداً مـــادام ثمـــة أكـــثر من آدمي واحد على الأرض، فحين كانا أخوين فقط قتل أحدهمـــا الآخـــر.. وســـوف يستمر ذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. سيقصـــف الإنسان غيره دائماً مادامت لديه هناك رغبات.. الإنسان يريد دائماً وكلمـــا ازداد عـــدد الأشياء التي يريدها كلما ازدادت شراسته وقلّت سعادته، المشكلة هي دائماً في أنه يريد ويريد ويريد المزيد..

قالت: هذا ما يقوله أبي أيضاً وعلمني أبيات شعر جديدة، هل أقرأها لك؟.

قلت: لا.. كلي بيضتك، ها هي قد نضجت.

فقالت: دعها تبرد. ثم وقفت مستقيمة كأنها في ساحة المدرسة وراحت تردد ما لا أظن بأنها تفهمه:

صغيرٌ يطلب الكبرا وشيخٌ ودّ لو صغرا
وخالٍ يشتهي عملاً وذو عمل به ضجِرا
ورب المال في تعب وفي تعب من افتقرا
فهل حاروا مع الأقدار أم هم حيّروا القَدرا ؟

ماذا فعلت بنا أيها الحاج ملا مطلك؟ تحشو رؤوسنا بتاريخ الحروب وقصائد الأديـــان وتحملـــنا إشـــكاليات بني آدم الوجودية، ولا تكف عن ترديد عبارتك الدائمة على مسامعنا كأغنية:"كل مصائب الدنيا من تحت رأس الإنكليز".. حتى كانت هي آخر ما لفظت مع أنفاسك الأخيرة.

قلت لها: لا يعجبني هذا النوع من الشعر، اسمعي ما يقوله رجل طيب من بلاد بعيدة اسمه رسول حمزاتوف:

إن الحمير نفسها
لو حاولت قراءة الكتب

لما استطاع أحد أن يقول عنها

بهكذا بساطة: حميراً.

ليكن الخبز رخيصاً على الأرض

ولتكن الحياة الإنسانية أغلى.

فكلـــي بيضـــتك أيتها الغالية. وسأجلب لك كتباً أخرى مختلفة عن كل التي في بيتنا.

قالت: قشرها لي إذاً.. إنها ساخنة.

ســمعنا طــرقات على الباب، وصوت الطارق يقول: أنا عزيز افتح الباب، هــذه رسالة لك من أوروبا. قلت لها: افتحي له. فركضت ورفعها عزيز إلى صــدره، قبلها، وكالعادة قال لها مداعباً: هاااي.. كيفك يا مجنونة؟. وأجابته: أنت المجنون. عزيز جارنا الذي يستمد حياته من النظريات والأحلام واقتراح المشــاريع الكبيرة التي ينساها في اليوم التالي. كان شيوعياً، والآن يقول علينا أن نســتفيد مــن أخطاء الماضي، أن نبدأ من حيث انتهينا، لقد أهملنا الإنسان الفــرد.. لقــد كان ذلك خطأً. تقلب عزيز بين الإسلاميين والقوميين والهيبيين والديمقراطيين والخضر و..

كففــت عــن تقشــير البيضة ورحت أقشر الرسالة التي جاءت من صديقي المنفــي فــي أوروبا، فوجدتها معبأة بالخوف، لأنه صار يرى كل ما في هذه الدنــيا مخيفاً، لذا يقول: لقد تجاوزت الأربعين، أنهيت رسالة الدكتوراه، وماذا بعــد؟ فأنا لا أجد عملاً.. بحكم البطالة وكبر سني.. أمضيت حياتي أعد نفسي للحــياة؛ دراســة وأوراق رســمية وتعلم لغات وقراءة كتب.. ها هي حياتي تتسرب من بين أصابعي بعد أن أكملت استعدادي لها.. أنا خائف من الغد.. أنا خائف من الخوف.. أنا خائف على ابني أيضاً لقد بلغ الرابعة من عمره الآن،

وعلـــى الـــرغم مـــن أنه ولد، هنا فإن أصحابه في المدرسة يقولون له: أنت أجنبي.. عُد إلى بلدك. يُفضل مثلهم ألعاب الحرب الألكترونية وأفلام العنف.. كلمـــا نظرت إليه ينقبض قلبي وأنا أسأل نفسي: ماذا عن مستقبله؟. فأشعر بأن شيخ المعرة كان على حق في أنه لم يجنِ على أحد. إلى أين يتجه هذا العالم؟. أمضـــيت حياتـــي خائفاً من كل شيء؛ من أبي وأمي والمعلم والمدير والفشل والشرطي والحرامي والحكومة والجوع والحروب والموت.. هربت من بلدي كي أبتعد عن الخوف، لكني أخاف هنا من أنانية الآخرين، من عنصريتهم، من أفـــلام الرعـــب والمخدرات وطغيان السوق وأزمة الوقت وصخب المراقص ونظرات العابرين.. فلماذا أنجبته؟.. لا تنجب يا صديقي أبداً.

ليســـت مشكلتي في أن أنجب أو لا.. أنا الآن خائف على أختي وهي تقول: البيضة مازالت ساخنة فافتحها للهواء. لكن جارنا عزيز يقول إن عالم غير هذا ممكن. عزيز يحب الاشتراك في المظاهرات، الاحتجاج ضد أي شيء.. فالمهم عنده هو عدم السكوت. لأن السكوت عجز، كما يقول. إنه مهووس بما يسميه النضال. حدثني قبل أيام عن ضرورة الانضمام إلى حركات وجمعيات إنسانية تعـــرف عليها مؤخراً. لم يكن خائفاً مثلنا بل مفعماً بالحماسة والثقة والأمل. أم أن هـــذا مجـــرد ســـتارة من وهم؟. قال: أريد قهوة. ثم راح يقصفنا بحديثه: السلاح انتهى فقد تم استخدامه على مدى قرون طويلة ولم يوصل إلى نتيجة.. لقـــد فشـــل فـــي أن يحل مشاكلنا. إذن يجب البحث عن أسلوب آخر ألا وهو الحـــوار وتـــبادل الاحترام. وعلينا الفصل بين التاريخ الذي لم يكن في خدمة الإنسان، أي العنيف. والتاريخ الآخر الذي خدمت عناصره الإنسانية. ففي كل ثقافـــة ثمـــة مـــا هـــو إنساني على مدى تاريخها، قد جاء على مراحل، ولكن الإنســـانية كانت عمياء. بالمناسبة سأتزوج بعد شهر بامرأة عمياء على الرغم

من اعتراض أمي. أريد القهوة بلا سُكر. عندما لا يعترض الذكاء ولا يتظاهر، تضـــعف الدعـــوات إلـــى الإنســـانية وتتراجع. علينا أن نبتعد عمن هم ضد الإنسانية، أي نترك بيننا وبينهم مسافة، ولكننا يجب ألا نفكر باستخدام السلاح أبداً في مواجهتهم.. أي نفصل بين من هم إنسانيين وغير إنسانيين.. لا تتواجه مـــع قـــوة كبـــيرة وإنما عليك بالصبر حتى تضعف وبعدها نقيم علاقة معها مبتدئيـــن بالحوار. الشرطة مثلاً أو أمريكا هي الآن القوة ولكنها ستضعف مثل قـــوى أخرى كثيرة في التاريخ. الطبيعة؟.. هي بيت الإنسان ويجب أن يكون هناك انسجام مع الطبيعة، أي لا يأخذ الإنسان منها أكثر من حاجته وهذا ليس لأجـــل الطبيعة ذاتها وإنما لأجل الإنسان نفسه، لأنها بيته، أي يجب أن تعاملها كمـــا تعامل بيتك.. ويبقى الإنسان أهم من الطبيعة. نحترم اعتقاد الآخر بعمق ونمـــيز بيـــن ما يتوافق والدعوة الإنسانية في اعتقاده، ونشخص ما يتعارض معها. عندما نتحدث عن المجتمع نتحدث عن المظاهر التي تدعم الإنساني فيه. فمـــثلاً إنـــنا نحترم من يعتقد بالله ونعتبر قوله هو اعتقاده، علينا احترام ذلك، وكذلـــك نحترم الذي لا يعترف بالله لأن كل شخص هو مسؤول عن اعتقاده.. إذاً فالذي يهمنا في ذلك هي العناصر الإنسانية.

صـــنعت لعزيـــز قهوتـــه، وضعتها أمامه على الطاولة وهو يدخن ويتحدث بشراهة كعادته: الفرق هو أن الإنسان ينفعل على العكس من الأشياء الجامدة. والعالم عالمين: الطبيعة والعالم الإنساني. من العالم الطبيعي تخرج الحيوانات والنـــباتات والأحجـــار والأشياء، والإنساني يمتلك عناصر إنسانية مثل: اللغة، الانفعـــال، القيم الأخلاقية وطبيعة استخدامه للأشياء.. فهو يُصلح ويعالج العالم ونفســـه. أهم العناصر هو الاحترام.. كيفية التعامل مع الآخر.. عليّ أن أنظر إلى نفسي كيف أريد أن يعاملني الآخرون فأعاملهم.

يبدو أن عزيز لا ينتظر مني أية مداخلة، وهو يسحب علبة سجائره من يد أختي دون أن يتوقف عن الكلام: هاتي العلبة. علينا أن نستخدم السؤال دائماً: ماذا تريد؟ وعند الجواب نسأل لماذا؟ ثم لماذا؟ ثم لماذا؟ حتى نلاحظ بأننا نصل إلى أفق أوسع.. إنه توسيع الصدر الإنساني.. الاستمرار بالسؤال عن الجواب حتى نصل في نهاية الأمر كنتيجة حتمية إلى أشياء إنسانية. وهذا الذي سيظهر خلف كل ذلك نسميه (الشعور الديني) يُسمى كذلك لأنه شعور أولاً وديني لأنه يتعلق بالعمل الإنساني.. ميكانيكية العمق الإنساني.

عزيز لم يذق قهوته، يتكلم وحده، يناقض دعوته ولا يتركني أسأله.. أصاب رأسي بالصداع، ولكن جل ما يوحي لي به دائماً هو أنه؛ مازالت هناك إمكانية لاستمداد القوة والحياة من الأحلام الطوباوية.. كأنه سكران، لكنه متقد بالحياة: لا تقل لي ما يَقله الله.. دع الله يقول ما يريد في القلب الإنساني. لا أحد يتكلم باسم أحد، ولا يقل أنا أمثل المجموعة الفلانية.. الفكرية.. وإنما هي إنسانية شاملة لا نريد لها أن تتحول إلى أحزاب وتجمعات.. لأن ذلك في النهاية يعتم على الحركة ويعيدها إلى الخطأ ذاته.. نريد بقاء عالمية وإنسانية الفكرة كما هي.. يجب الفهم بأن الأشياء في أصلها هي ليست ملكاً لأحد.. يجب تغيير وجهة النظر إلى الملكية الخاصة، فمثلاً إذا كنت تحتاج إلى بيت واحد للعيش، فلماذا تمتلك أكثر من بيت؟ تحتاج إلى كأس ماء واحد فلماذا تحجز عشرة؟ إلى سرير واحد فلماذا تحتكر سبعة؟.

كان كمن يهذي، كمن يردد أقوال أصوات يسمعها في أذنيه وحده، كمن يحفظ مقاطع من خطابات طويلة، كمن يتدرب على الخطابة برأسي، كمن يريد الهروب من أشياء يخفيها، كمن يحاول ملء الصمت بأي صوت، كمن.. لم يمسس قهوته وظل يدخن، يسأل ويجيب:

الفلكلـــور؟.. كل إنسان يميل للتحزب أو الانفعال بشيء ما، اعتقاد أو تراث، ولكـــن الذي يهمنا من كل ذلك ـــ ونحن نحترمه ـــ هو نقطة علاقته بالإنسان والإنســـانية. ودائمـــاً علينا استخدام الحوار والمحادثة والسؤال المنطقي (كان عزيـــز يـــتحدث وحده ولا ينتظر مني محاورة أو يسألني عن رأيي).. يجب أنسنة الأشياء والفن والنتاج الآدمي، يجب النظر إليها بإعادتها وتقييمها حسب أهميتها للإنسان، لما يخدم الشعور والعناصر الإنسانية، العودة إلى إعادة النتاج وقياســـه وفـــق خدمته للإنسان.. نقول إن الإنسان الآن يرى الأشياء معكوسة والتوجه الإنساني الذي ندعو إليه ونناضل من أجله هو أشبه بنظارات يضعها لـــيرى الأشياء كما هي. أوقد عزيز سيجارة أخرى دون أن ينتبه إلى السابقة بين إصبعيه.

الغالبـــية من الناس هم إنسانيون، لأنهم جميعاً في الأصل كذلك، ولكن يجب إعـــادة التذكير الدائم بالعناصر الإنسانية. والإنسان الفرد نفسه عليه، دائماً، أن يهدأ ويراجع ذاته، يترك تفاصيل الحياة اليومية قليلاً كي يقوم بمراجعة الذات، ودائماً وفق استحضار المشاعر الإنسانية الجيدة والتفكير فيها والتخطيط لفعلها حـــتى يـــتعود علـــيها. يخـــدم الأمـــر كذلك في تقوية وتطوير هذه العناصر الاجتماعـــية الأسبوعية مع أناس يحاولون تقوية المشاعر الإنسانية في أنفسهم حـــتى نصـــل إلى الشخصية الإنسانية.. على الإنسان أن يقرر ما يريده ووفق المشاعر الإنسانية ومتى؟.

ظـــل عزيـــز يمطرنا بانثيالاته، بمنطقه المفكك الصادق، باشتعالاته. يشعل سيجارة من عقب أخرى ولا يتوقف عن الحديث، زارعاً كلمة إنسان أو إنسانية بيـــن كل العبارت. إنه يبدد ما كنا عليه من حذر في الكلام ويحول الأمر إلى احتفالية صاخبة بالكلمات:

علينـا العناية بما تعتقده الناس بعمق. دائماً ثمة حوار حتى مع الإنسان الفرد حـول مـا هو عام وشامل إنساني. ومحاولة التأثير عليه حول أهمية علاقته برأي الآخر وبعدها.. ماذا؟.. الاقتصاد؟ العلاقات الاقتصادية تقسم إلى قسمين: صـاحب المال والعامل. نقول إنهم شركاء.. يعني الغني يعتني بماله لمستقبله والعامل يعمل من أجل مستقبله، هم شركاء ولكن الذي يحدث واقعاً أن صاحب المال يأمر ويحاول استغلال حياة الآخر. على الناس أن تعمل لتؤمن حاجياتها ولكن عن طريق العمل، لا عن طريق استغلال عمل الآخرين..

ومـا أن سـمعت أختي بكلمة عمل حتى رددت مما حفظَّها إياه أبي نقلاً عن أشرطة كشك:

يا مَن بدنياه اشتغل وغـرّه طـول الأمل
الموت يأتي بغـتةً والقبر صندوق العمل

قال عزيز: ماذا تقول هذه المجنونة؟. قالت هي: أنت المجنون. وقلت أنا: هذا ما جناه عليها أبي ولم تجنِ على أحد. اشرب قهوتك، لكنه لم يفعل وكان متقداً باسترساله:

طبعاً، فالذي لا يفهم من نظرة فلن يفهم شروحات طويلة. إننا لا نقول بتخزين المـال وإنمـا بتأمين الحاجات. فما أفقر الشخص الذي لا يملك سوى المال. الغنـي لـيس غنـياً لأنـه عمل ذلك. صاحب المال لم يصبح غنياً إلا بعمل الآخرين، إذاً صاحب المال الحقيقي بشكل عام هو الإنسان وليس هذا الشخص المحتكر؛ باختصار الذي يجلب الغنى هو الإنسان وليس المال. يجب المراهنة علـى الإنسـان دائماً وعلى مطاولته وخلوده.. يجب ألا نسكت لأن السكوت عجز.. البير كامو يقول: لنفرض أن عدداً من الأفراد قد عقدوا العزم على أن يضـعوا إزاء القـوة: القدوة الصالحة، وإزاء السلطة: الحث والنصح. وإزاء

الإهانة: المنطق المسالم، وإزاء الخديعة: النبل والشرف.. أناس كهؤلاء يكونون حينئذ ممهدي المستقبل.. أنا، مثلاً، سأتزوج بعد شهر من امرأة عمياء.. لمَ لا؟.. أليست هي إنسان مثل بقية الناس؟.. أليس..

قلت له: يا عزيز اشرب قهوتك لقد صارت باردة.

وقلت لها: يا أختي كلي بيضتك لقد صارت باردة.

قصف لغوي

و"القَذْف هو الرمي بالسهم والحصى والكلام وكل شيء"
الليث

.. ما من حَرَكة، أية حركة في هذا الكون، إلا شكل من أشكال القصف.. لقد هيمنَت عليّ رؤية القصف تماماً لكثرة ما قرأت وما سألت وما سمعت عنه ولكثرة ما فكرت به.. أخذت أفسر كل حركة (بما في ذلك حركات اللغة) على أنها من أشكال القصف. سقوط النور على رأسي من مصباح السقف قصف، دخان سجائر الآخرين قصف، نبضات القلب، رنين الهاتف، هبوب الهواء، هسيس الحصى، هبوط الليل، هطول المطر، هلاك النجوم، هوس كرة القدم، هَبل الساسة، هتاف الشعراء، هجرة الفقراء، هواجس العيش، هزل الأصدقاء، هش الذباب، هضم الطعام، هفهفة الثياب وهمس البنات قصف، قصف، قصف. وصرت أستخدم هذه الكلمة كثيراً في حديثي وتأويلاتي حتى أصيب أصحابي بالعدوى.. أم تُراهم يمزحون، حين صار أحدهم يقول داعياً إيانا إلى العشاء: هيا نقصف هذا المطعم.. ومن ثم يهمس لي في المرقص ليلاً: تعال نقصف هاتين الجميلتين. وقادني إلى فتاتين تقفان في آخرِ المرقص، كانت إحداهما ترفع كأسها وتنظر إلى صاحبي قاصفة إياه بالابتسامات. كما وجدت نفسي مع صديق آخر نستبدل بعض مفردات القصائد والأغنيات التي نحفظها بمفردة قصف، فنترنم طوال ممشانا على الأرصفة بـ"يا قاصفي باللحظ أول مرة.. أقصف بثانية على المقتولِ. و يا اللي قصفتونا يمتى تذكرونا. وطالعة من بيت أبوها قاصفة لبيت الجيران. والذي تقصفه الحية بيده يخاف من قصف

الحبل". واستبدلنا كلمات المطر بكلمات القصف في (أنشودة المطر) فكانت النتيجة بمثابة قراءة جديدة لقصيدة السياب. فكرت عندها أن أبحث عن كل مفردات القصف في الشعر العراقي منذ جلجامش، دراسة سيكون فصلها الأول عن معاني كلمة قصف واشتقاقاتها اللغوية واستخداماتها في التراث ثم توظيفاتها في الأدب المعاصر أو حتى في الحوار الشعبي اليومي، فقادتني هذه الفكرة إلى أن أبحث عن ذلك في كل اللغات، الأخرى لذا جلست طوال ليلة كاملة أبعث لأصدقائي المشتتين في بقاع الأرض برسائل ألكترونية طالباً منهم أن يزودوني بالصيغ اللفظية والمعاني اللغوية والاستخدامات الأدبية والشعبية لكلمة قصف في لغات البلدان التي يعيشون فيها وألسنة الشعوب.. فجاءتني الأجوبة على بريدي (الإيميل) في الليلة التالية بعوالم كاملة من الأصوات والاستخدامات والمعاني بحيث يحتاج هذا الأمر بمفرده إلى بحث آخر، فلكل شعب تاريخه مع هذه الكلمة.. لذا تخليت عن الفكرة كي لا تقودني إلى متاهات بعيدة واكتفيت منها برسالة الصديق محمد بن مُكرَّم من مصر كي أسوقها نموذجاً لغوياً له دلالاته الكثيرة وروحه الحكائية وحسه الشعري.. ويفتح آفاقاً واسعة لقصف القصف بالتخيل والأحلام والحكايات والتأويلات والكتابة.

يقول:

صديقي العزيز محسن الرملي المحترم

تلقيت رسالتك (الإيميل) وأنا مشغول جداً هذه الأيام بحزم حقائبي كي أسافر إلى ليبيا، حيث حصلت على فرصة عمل هناك في مجال القضاء. لذا سأوجز لك ما أعرفه عن هذه المفردة في (لسان العرب) مستنداً على كتب: (التهذيب) للأزهري، و(المُحكم) لابن سيده، و(الصحاح) للجوهريّ، و(النهاية) لابن الأثير ومقتطفاً لك بعض الأبيات من دواوين أصدقائنا المشتركين. هذا وأنبهك

إلـــى أن بعــض القراء تضجرهم قراءة النص المعجمي اللغوي. فقلة قليلة هم أشــباه حســن مطلك الذي كان يستمتع بقراءة المعاجم والقواميس، ويستلذ بها كأنه يقرأ في رواية.

إن القصف، يا عزيزي، هو الكَسر، قَصَفَ الشيء يقصِفه قصفاً: كسره. وفي حديــث عائشـــة تصـــف أباها: ولا قصفوا له قناة، أي ما كسروا. وقد قصِفَ قصـــفاً، فهو قصِف وأقصَف، وانقصَفَ وتقصَّفَ: انكسر، وقيل: قصِفَ انكسر ولم يَبِن. وانقصَف: بان؛ قال الشاعر:

سيفي جريء وفرعي غير مؤتشب   وأسمرٌ غيرُ مجلُوزٍ على قَصَفِ

والقصف هو رمي القذائف من المدافع أو الطائرات في الحروب الحديثة، قال صــــلاح حســـن (علمتُ أنه في هولندا الآن، فإذا تهاتفتم قل له أن يحلق كفشته قليلاً):

مريرون كميتٍ يتذكر أخطاءه
في القصفِ..
صِف لنا أيها القاتل؛
كيف تكون الشظية
عذراء بين الجنود؟.

وقَصَـــفت الـــريحُ السفينة. والأقصف: هو الذي انكسرت ثنيته من النصف. وقصِـــفت ثنيته قصفاً فهي قصفاء: انكسرت عَرْضاً. والقصفُ: مصدر قصفتُ العُـــود قصفاً إذا كسرته. قال أحمد عبدالحسين (لقد انتقل من دمشق إلى كندا، وقرأت له ما نشر مؤخراً في الإنترنيت):

أي رب..
تكسرت عصيٌّ على رؤوسنا فما نستَطيع دنواً

..ألا تسمع؟

وقصـــفَ العودُ يقْصَف قصفاً، وهو أقصَفُ وقصيفٌ إذا كان خوّاراً ضعيفاً، وكذلك الرجل؛ رجل قصِف: سريع الانكسار عن النجدة؛ قال ابن بري: شاهده قول قيس بن رفاعة (المسكين لقد ماتت سبعة من إبله بالجَرَب):

أُولو أناةٍ وأحلامٍ إذا غضبوا، لا قَصِفُونَ ولا سودٌ رعابيبُ

ويقال للقوم إذا تخَلّوا عن شيء فتوراً وخذلاناً: انقصفوا عنه. ورجل قصيف البطـــن عـــن الجوع: ضعيف عن احتماله؛ هذا عن ابن الأعرابي. أما حسن الخرســـاني فـــي قصـــيدته المهـــداة إلـــيك،(هـــل لديـــك عنوانه؟)، فقد ذَكر الجياع/القصيفين في قوله:

في طريقك للحرب

في طريق الظلام.. صرختَ:

جياع وموتى.. فأين أنام؟؟

وجاء النخيل

وألقى عليك السلام.

وريـــح قاصِف وقاصِفة: شديدة تُكَسِّر ما مرت به من الشجر وغيره. وروي عـــن عبيدالله بن عمرو: الرياحُ ثمان: أربعٌ عَذاب وأربع رحمة، فأما الرحمة: فالناشـــراتُ والذاريـــاتُ والمُرســـلاتُ والمُبشـــرات، وأما العذاب: فالعاصِفُ والقاصِفُ وهما في البحر، والصَّرصَر والعَقيمُ وهما في البَر. وقوله تعالى: أو يُرسل عليكم قاصفاً من الريح؛ أي ريحاً تَقصِف الأرشياء تكسرها كما تُقصَف العـــيدان وأعمـــدة أسلاك الكهرباء. وعن الرياح قال الصائغ، (كيف أصبحت عينه؟):

الربان المتردد
بين السطح وبين القاع
يحسب كل رياح العالم
غير مواتية للإقلاع.

وثــوب قَصــيف: لا عَرض له. والقصفُ والقَصَفة: هدير البعير وهو شدة رُغائـــه. قَصَفَ البعيرُ يقصفُ قصفاً وقُصوفاً وقَصيفاً: صرفَ أنيابه وهَدر في الشّــقْــشِــقة. أي يمكنك أن تصف، في قصتك (أنا وأنت والناقة مسعودة في عاصـــفة الصـــحراء)، بهذه المفردة، أصوات حزن الناقة مسعودة على ولدها. ورَعــدٌ قاصفٌ: شديد الصوت. قال أبو حنيفة: إذا بلغ الرعد الغاية في الشدة فهـــو القاصـــف، وقـــد قصَف يقصِف قصفاً وقَصيفاً. وفي حديث عن موسى والبحر: فانتهى إليه وله قَصيف، أي صوت هائل يشبه صوت الرعد، يرتجف الـــبحر مخافة أن يضربه موسى بعصاه، ؛ ومنه قولهم: رعد قاصف أي شديد مُهلِـــك لصـــوته. والقَصْف: اللهو واللعب. والقَصفُ: الجَلَبة والإعلان باللهو. وقصَــفَ علينا بالطعام يَقصِف قصفاً: تابعَ ابن الأعرابي: القُصُوف الإقامة في الأكـــل والشـــرب. والمقصف مكان للأكل والشراب، قال فضل خلف جبر (هو الآن في أمريكا):

اندلعت الحرب إثر مزحة
أُطلقَت بين صديقين حميمين
في جلسة شراب، في مقصفٍ غير وقور!.

والقَصْــفة: دَفعة الخيل عند اللقاء. والقصفةُ: دفعة الناس وقَضّتهم وزَحمتهم، وكذلـــك اندفاع الماء المتدفق. وقصْفة القوم: تدافُعُهم وازدحامهم. وفي الحديث الـــذي يرويه نابغة بني جَعدة عن النبي، أنه قال: أنا والنبيون فُرَّاطٌ لقاصفين،

وذلك على باب الجنة؛ قال ابن الأثير: هم الذين يزدحمون حتى يقصِف بعضهم بعضاً، من القصف الكسرِ والدّفعِ الشديد، لفَرْط الزّحام؛ أي أنهم يتقدمون الأمم إلى الجنة وهم على إثرهم بِداراً مُتدافعين ومُزدحمين. وقال غيره: الانقصافُ الاندفاع. يقال: انقصفوا عنه إذا تركوه ومرّوا؛ معنى الحديث أن النبيين يتقدمون أممهم في الجنة والأمم على أثرهم يبادرون دخولها فيَقصِفُ بعضهم بعضاً أي يزحمُ بعضهم بعضاً بِداراً إليها. وقال ابن الأنباري: معناه أنا والنبيون متقدمون في الشفاعة كثيرين متدافعين مزدحمين. فيما نتدافع نحن اليوم في طوابير الخبز والبيض والسينما ونتقاصف داخل حافلات الركاب والمترو. ويقال: سمعتُ قصفة الناس أي دَفعَتهم وزحمتهم؛ قال العجاج:

كقَصْفةِ الناسِ من المُحْرَنْجِمِ

وروي في حديث عن النبي، صلى الله عليه وسلم: لما يَهُمّني من انقِصافهم على باب الجنة أَهَمُّ عندي من تمام شفاعتي؛ قال ابن الأثير: أي أن استِسعادَهم بدخول الجنة وأن يتم لهم ذلك أهم عندي من أن أبلغ أنا منزلة الشافعين المُشَفَّعين، لأن قبول شفاعته كرامة له، فوصولهم إلى مبتغاهم آثَرُ عنده من نَيل هذه الكرامة لفَرط شفَقَته على أمته. وفي حديث أبي بكر: كان النبي يصلي ويقرأ القرآن فتَتَقَصّفُ عليه نساء المشركين وأبناؤهم، أي يزدحمون. وفي حديث اليهودي: لما قَدمَ المدينة قال: تركت بني قَيْلة يَتَقاصفون على رجل يزعم أنه نبي. وفي الحديث: شيَّبَتني هُود وأخواتُها قَصَّفْن عليَّ الأمم، أي ذُكر لي فيها هلاك الأمم وقُصّ عليَّ فيها أخبارهم حتى تقاصف بعضها على بعض كأنها ازدحمت بِتتابُعها. وعن الزحمة/التقاصف قال عبدالهادي سعدون (بلّغه تحياتي):

عندما تجديني

في زحمة الغيوم

مرافقاً صمتي

وعزلة الموتى

الذين يحضرون كياني تلك اللحظة

ناديني بلا اسم

لأنني لن أجيب.

ورجـل صـليفٌ قَصـيفٌ: كأنـه يدافع بالشرّ. وانقَصفُوا عليه: تتابَعوا. والقَصْفةُ: قِطعة من رمل تَتَقَصّف من مُعظَمه؛ حكاه ابن دريد، والجمع قَصْف وقُصـفانٌ مـثل تَمْـرة وتَمرْ وتُمران، والقَصفة: مرقاة الدرجة مثل القصمة، وتسـمى المـرأة الضخمة القِصاف. وفي الحديث خرج النبي، صلى الله عليه وسـلم، على صَعدة يتبعها حُذاقيّ عليها قوصَفٌ لم يبق منه إلا قَرقَرُها؛ قال: والصَّعْدة الأتانُ، والحُذاقيُّ الجَحْش، والقَوصَفُ القَطيفة، والقَرْقر ظهرها.

والقَصـيف: هشيم الشجر. والتَّقَصُّف: التكسُّر. ويقال: قَصِف النبتُ يَقْصَفُ قَصَـفاً، فهو قَصيف إذا طال حتى انحنى من طوله؛ قال لبيد (الذي أذهب ماء عينيه بكاءً على أخيه):

حتى تَزَيَّنَتِ الجِواءُ بفاخرٍ قَصِفٍ، كألوان الرجال، عميم

أي نبتٍ فاخرٍ، والبَرْديُّ إذا طال يقال له القَصيفُ. وبنو قِصاف: بطن.

وثمـة كلمات أخرى مقاربة لكلمة القصف في اللفظ والمعنى، خذ على سبيل المـثال كلمـة: قصـم التي قيل عنها في كتاب (المنجد): قَصَم الشيء قصماً: كسـره، وقَصَـم الـرجل: أهلكه، وقَصَم فلانٌ: رجع ولم يتم إلى حيث قصد. يقـال:"قَصَمَ الله ظهر الظالم"، (آآآمـين)، أي أنزل به البلية، ويقال:"قصَمَ الله عمـر الكافـر" أي أذهـبه. تَقَصَّمَ وانقَصَم: انكسر، يقال: "نزلَت بهم قاصِمة

الظهـــر" أي أصـــابهم الهلاك. القُصَم: مَن يحطم كلَّ ما يلقاه. القَصَم، مفردها قَصَمة،: انكسار الثنيَّة من النصف، وتعني أيضاً: بيض الجراد. القَصِم: السريع الانكسار. قال سعد جاسم (أين صفى به الدهر؟) عن الدكتاتور:

هـــو؟

القشة التي قَصَمت

ظَهر أيامنا؟.

القَصِيم: السريع الانكسار. والقَصِيم، رملة تُنبت الغضا. يقال:"ذهبوا يحطبون في القصيم". القيصوم: نبات طيب الرائحة يُتَداوى به. الأقْصَم، مؤنثها قصماء وجمعهـــا قُصْــم: المنكسر الثنية من النصف، القصماء من المعز: المكسورة القرنِ الخارجِ.

وخـــذ علـــى ســـبيل المثال أيضاً كلمة قذف: قَذَفَ بالشيء يَقذِف قذفاً فانقذف: رمى. والتقاذف: الترامي؛ أنشد اللحياني:

فقذَفتُها فأبتْ لا تَنْــقَذِفْ

وقال علي ناصر كنانة (لقد وصلني ديوانه "بغداهولم" البارحة من استوكهولم):

ليس من الوطن سوى ماضٍ

ولا من الحاضر غير منفى

كم من البحار.. أن نعبر..؟!

كم من الحدود.. نجتـــاز..؟!

كم من القطارات/ من البواخر/ والطائرات/

تــتــقـــاذفـــنـــا

بين عواصم/نائية جداً/ عن حبل المشيمة.

إن هذا العراق

ينجب أبناءً

للموت أو للتصدير!.

وقوله تعالى: قل إن ربي يَقذفُ بالحق علاّم الغُيوب؛ قال الزجاج: معناه يأتي بـالحق ويرمـي بالحق، كما قال تعالى: بل نَقذف بالحق على الباطل فيَدمَغُه. وقوله تعـالى: ويقذفون بالغيب من مكان بعيد؛ قال الزَجّاج: كانوا يرجمون الظنون أنهم يُبعثون. وقَذَفه به: أصابه، وقذَفَه بالكذب كذلك. وقَذَفَ الرجل أي قـاء. وقـذَفَ المُحَصَنة أي سبها. وفي حديث هلال بن أمية: أنه قذف امرأته بشـريك؛ القذف هنا رمي المرأة بالزنا أو ما كان في معناه، وأصله الرمي ثم اسـتُعمل فـي هذا المعنى حتى غَلب عليه. وفي حديث عائشة: وعندها قَيْنَتان تُغنِّـيان بما تقاذَفَ به الأنصار يوم بُعاثَ، أي تشاتمت في أشعارها وأراجيزها التـي قالتها في تلك الحرب. والقذف: السب وهي القذيفة. والقذف بالحجارة: الرمـي بها. ولذا فإن حجارة أطفال فلسطين قذائف حق. يقال: هم بين حاذفٍ وقـاذفٍ وحاذٍ وقاذٍ على الترخيم، فالحاذفُ بالحصى، والقاذف بالحجارة. ابن الأعرابـي: القـذف بالحجـر والحذف بالحصى. الليث: القذف الرمي بالسهم والحصـى والكـلام وكل شيء. ابن شميل: القذافُ ما قَبَضتَ بيدك مما يملأ الكف فرميت به. قال: ويقال نِعْم جُلْمود القذاف هذا. قال أبو خَيْرة: القذافُ ما أطَقتَ حَملَهُ بيدك ورميته؛ قال رؤبة (أنت لا تعرفه):

وهو لأعدائكَ ذو قِرافِ   قَذّافة بحَجر القذافِ

والقَذَّافة والقَذّاف جمع: هو الذي يُرمى به الشيء فيبعُدُ؛ قال الشاعر:

لما أتلني الثقفيّ الفتانْ   فنصبوا قَذّافةً بل ثنتانْ

والقَـذّاف: المنجنيق وهو الميزان؛ عن ثعلب. والقَذيفة: شيء يُرمى به؛ قال المُزَرّد:

قذيفةُ شيطانٍ رجيمٍ رمى بها   فصارت ضواةً في لهازمِ ضِرْزِمِ

وفي الحديث: إني خشيتُ أن يَقذِفَ في قلوبكم شراً، أي يلقي ويُقع. والقذفُ: الرمـــي بقوة. وفي حديث الهجرة: فتنقذِفُ عليه نساء المشركين، وفي رواية: فتنقصفُ. وقول النابغة:

مقذوفةٍ بدَخيسِ النَّحض بازِلُها   له صَريف صريفَ القَعوْ بالمَسَدِ

أي مرمـــية باللحم. ورجل مُقَذَّفٌ أي كثير اللحم كأنه قُذِف باللحم قذفاً. يقال: قُذِفَـــت الـــناقة باللحم قذفاً ولُدِسَت به لَدساً، كأنها رُميت به رمياً فأكثرت منه؛ والمُقَذَّف: المُلَعَّن في بيت زهير وهو:

لَدى أسدٍ شاكي السلاح مُقذَّفٍ   له لِبَدٌ أظفارُه لم تُقَلَّمِ

وقـــيل: المُقَذَّف الذي قد رُميَ باللحم رمياً فصار أغلبَ. ويقال: بينهم قِذِّيفي، أي ســـبابٌ ورمـــيٌ بالحجارة أيضاً. ومفازة قَذَفٌ وقُذُفٌ وقَذوفٌ: بعيدة. وبلدة قـــذوفٌ أي طَروحٌ لبُعدها، وسَبْسَبٌ كذلك. ومنزل قَذَفٌ وقَذيفٌ أي بعيد؛ فأنت الآن قذيف عن وطنك، وأنشد أبو عبيدة:

وشَطَّ وليُ النوى، إن النوى قَذَفٌ   تَيَّاحةٌ غربة بالدار أحيانا

أبـــو عمـــرو: المقْذَفُ والمقذافُ مِجذاف السفينة، والقَذَّاف المَرْكَب. والقُذْفُ والقُذْفـــة: الناحية، والجمع قِذافٌ. الليث: القُذَف النواحي، واحدتها قُذْفَةٌ. غيره: قَذَفا الوادي والنهر جانباه؛ قال الجعدي:

طليعةُ قومٍ أو خميسٌ عَرَمْرَمٌ   كسيلِ الأتيّ ضمَّه القَذَفانِ

الجوهريّ: القُذفةُ واحدة القُذَف والقُذُفاتِ، وهي الشُّرف؛ قال ابن بري: شاهد القُذَف قول ابن مُقبل:

عَوداً أحمَّ القَرَا أُزمُولةً وقِلاً   على تُراث أبيه يَتبعُ القُذَفا

وقُذُفــاتُ الجــبال وقُذَفها ما أشرف منها، واحدتها قُذْفةٌ، وهي الشُرف؛ قال امرؤ القيس (إني ما زلت أقرأ أشعاره كل يوم):

وكنتُ إذا ما خِفتُ يوماً ظُلامَةً   فإن لها شِعباً ببُلطَةِ زَيْمَرا

مُنيفاً تَزِلُّ الطيرُ عن قُذُفاتِه،   يَظَلُّ الضبابُ فوقه قد تَعَصَّرا

ويروى نيافاً تَزِلُّ الطير، والنياف: الطويل؛ قال ابن بري: ومثله لبِشر بن أبي خازم:

وصَعبْ تزِلُّ الطيرُ عن قُذُفاته   لِحافاته بانٌ طِوال وعَرْعر

وقال فدريكو ابن غارثيا لوركا الأندلسي (هل زرت بيته؟):

عندما أموت

اتركوا القُذفة مفتوحة

الطفل يأكل البرتقال

من قُذفتي أراه

الفلاح يحصد القمح

من قُذفتي أراه

إذا متُّ

اتركوا القذفة مفتوحة.

وهناك من ترجم القُذفة بالشرفة، وكلاهما صحيح لأن المعنى واحد، مثلما هو الموت واحد سواء تحت القصف أو إعداماً بالشنق وبالرصاص أو على فراش المــرض أو بسبب جلطة قلبية إثر هبوط أسعار البورصة. وكل ما أشرف من رؤوس الجــبال، فهي القُذُفات. وفي الحديث: أنه صلى الله عليه وسلم، صلى فــي مسجد فيه قُذُفات. قال أبو عبيد في الحديث: إن عُمر، كان لا يصلي في مسجد فيه قُذُفات؛ هكذا يُحدثونه؛ قال ابن بري: قُذُفاتٌ صحيح لأنه جمع سلامة

كغُرفة وغُرفات، وجمع التكسير قُذَفٌ كغُرف، وروي: في مسجد فيه قِذاف؛ قال ابن الأثير: وهي جمع قُذفة، وهي الشرفة كبُرمة وبرام وبُرقة وبِراق، وقال الأصمعي: إنما هي قُذَفٌ وأصلها قُذفة، وهي الشُرف. وناقة قِذاف وقَذُوف وقُذُوف: وهي التي تتقدم من سرعتها وترمي بنفسها أمام الإبل في سيرها؛ قال الكميت:

جَعلتُ القِذافَ لليلِ التمام إلى ابن الوليد أبانٍ سِبارا

قال: جعلتُ ناقتي هذه لهذا الليل حشواً. وناقة قِذافٌ ومُتقاذفة: سريعة، وكذلك الفرس. وفرسٌ مُتقاذفٌ: سريع العدو. وسير مُتقاذف: سريع؛ قال النابغة الجعدي:

بحيّ هلاً يُزجونَ كل مطيّةٍ أمام المطايا سيرها المُتقاذِفُ

والقِذافُ: سرعة السير. والقَذُوف والقذَّاف من القِسِيّ، كلاهما: المبعد السهم؛ حكاه أبو حنيفة؛ قال عمرو بن براء:

ارمِ سلاماً وأبا الغرَّافِ وعاصماً عن مَنْعَةٍ قَذَّافِ

وروضُ القِذافِ: موضع. ابن بري: والقَذاف الماء القليل. وفي المثل: نَزافِ نَزافِ لم يبقَ غير قَذافِ،(كذا في الأصل) وذلك لأن امرأة كانت تُحمَّق فأتت على شاطئ نهر فرأت غَيْلَمةً فألبستها حليّتها، فانسابت الغيلمة في البحر، فقالت لجواريها: نزافِ نزافِ، أي انزفنَ البحر لم يبق غيرُ قَذافٍ، أي قليل.

هذا.. ونَعم؛ إن الكلام قصف أيضاً، وعليه أقول: إياكم والقصف، فالقاصف والمقصوف كلاهما في نار؛ الأول بنار جريمته والثاني بنار القاصف. والقصف هو آخر خطاب الملوك. ثم أختم قولي بقول خاتم الأنبياء الذي لا ينطق عن الهوى وإنما بما يُوحي له المتعالي القائل:" لا يغتب بعضكم بعضاً.. أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً؟" و"لا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع،

والبصـــر، والفـــؤاد، كـــل أولئك كان عنه مسئولا" و"ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد".

يقـــول الرســـول المُوصـــي بعظمة الكلمة ومراقَبة اللسان: إن الكلمة الطيبة صـــدقة، فلتقل خيراً أو لتصمت. وقال: من يضمن لي ما بين لحييه (اللسان) ومـــا بين رجليه (الفرج) أضمن له الجنة.. وإذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكَفِّر اللسان (أي تذل وتخضع له) تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك: فإن اســـتقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا.. أتدرون ما الغِيبة؟ إنها: ذكر أخاك بمـــا يكـــره. فأمسك عليك لسانك وليسعك بيتك. لما عُرج بي مررتُ بقوم لهم أظفـــار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قـــال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم. قلت: ما أخوف ما تخاف عليّ يا رسول الله؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: هذا.. كف عليك هذا. قلت: يا رسول الله وإنا لمُؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك.. وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصاد ألسنتهم..

فانتبه يا رمليّ لما تقصف به الناس من قذائف كلامك.

المخلص

محمد بن مُكَّرم (ابن منظور)

اليوم في الإسكندرية وغداً في طرابلس

ليالي القصف السعيدة

(قصص)

القصف في غرفة أمي

بعــد أن قُصِفَت اتصـالات بغداد سكتت إذاعتها وانطفأ التلفاز فلم يبق لأهالي قريتــنا إلا الإذاعات الأجنبية، وعادت ثقوب أجهزة الراديو تعانق ثقوب آذان الفلاحيــن لــتكون مــع إشاعات المقاهي وحكايات الجنود الهاربين مصادرهم الوحــيدة في معرفة ما يحدث حيث لم يكونوا يرون إلا الطائرات العالية سوداً بحجــم الغربان تخترق غيومهم، وأعمدة الدخان والغبار المرتفعة من الكهوف التــي كانت تحفرها الحكومة تحت المدينة الأثرية منذ أعوام قائلة بأنه مصنع للسيارات فيما تقول إذاعة مونت كارلو بأنه مصنع أسلحة دمار شامل، فيتفجر جــبل مكحول في الضفة الأخرى من النهر وتهتز جدران الطين هنا، يرتجف ســعف النخلات المتبقية، تفزع الأبقار والحمير والنعاج، تنبح الكلاب وتقوقئ الدجاجات.

إن مــا يسمعه أحد أفراد القرية يصل إلى أسماع الجميع خلال ساعتين، لذا فقــد كــان لتعلــيق إخباري في القسم العربي من إذاعة لندن عن احتمالية أن يضرب العراق جيوش التحالف بأسلحة كيميائية وجرثومية وأن التحالف سيرد بمثلها، الأثر الأكبر في تحويل القرية من كائنات هادئة تمارس حياتها اليومية بقلوب وجلة على أبنائها في الجبهات إلى ضجة من الفزع والحركة حيث راح الجمــيع يســدون نوافــذ بيوتهم بالكارتون من الداخل والبلاستك من الخارج وتطييــن كــل ما هو لامع من براميل المياه والسيارات ومكبرات الصوت في مــنارة الجامع وكل ما هو أبيض بما في ذلك النعاج والدجاج وشواهد القبور. وجمعــت أمــي أحفادها في حجرة واحدة من البيت، في غرفتها تحديداً، سدت

نافذتهـــا بإحكـــام وحشرت بطانية تحت الباب بعد أن أدخلت معها ما تبقى من أكـــياس الطحيـــن والعـــدس والسكر والبصل والفاصولياء والحمص والطباخ وفانوســـاً، متمنـــية لو أن أبي حيّ كي يعينها على تجاوز هذه المحنة ويمنحها القـــوة لأنـــه خبر الحروب منذ عهد الإنكليز.. ولأنها كانت قلقة على بقرتيها والحمـــارة فقـــد فتحت بعد ساعة بظهر الملعقة ثقباً في الكارتون والبلاستك ثم وسعته بإصبعها كي تراقب حيواناتها في الزريبة المقابلة بعد أن تركت لها في معالفها ما ظنت بأنه سيكفيها من التبن والشعير والماء لأسبوع كامل، وتمنت، أيضـــاً، لو أنها تستطيع رؤية جارتها أيضاً. وراحت ترتب الحجرة كي تتسع لأوانـــي الطبخ ومنامات كنتيها بأطفالهما التسعة. وبعد أن انتهت متعة الأطفال بهـــذا التغيير الجديد راحوا يبحثون عن أشياء أخرى تسليهم فأباحت لهم اللعب بكـــل شـــيء إلا الصـــندوق الذي تحتفظ فيه بأشياء أبي على رف واطئ في الزاوية (ممنوع اللمس). فعبثوا بكل شيء وانتهوا بالتقاصف فيما بينهم بحبوب الحمـــص والفاصـــولياء ثم ضرب بعضهم لوجوه البعض، لذا جمعتهم حولها وشـــرعت تســـرد لهـــم الحكايات التي كانت تسمعها من أمها في طفولتها عن السعلاة والحنفيش ونصف النصف والطنطل والسندباد.. فوجدت في ذلك متعة لهـــا هي باستعادة ذكريات حول مواقد الجمر وفرقعة بذور الذرة في الشتاءات البعيدة قبل أن يعرفوا مدفأة النفط.. وسرَّها صوتها الخاص وهي تتأكد من أنها مازالت تذكر تلك الحكايات التي قبرها التلفاز بحضوره منذ أعوام حين أهدته الحكومة إلى الفلاحين كي يواكبوا تعبئتها لسنوات الحرب مع إيران.. وعندما حـــل اللـــيل ســـد الظلام ثقب النافذة ولم تعد تر شيئاً في الخارج. لانت رقاب الأطفـــال وأطـــبق الـــنعاس أجفانهم فأخرجتهم بمعونة أمهاتهم على عجل كي يتبولوا في (طشوت) أعدتها لذلك في الغرفة المجاورة وأعادتهمليناموا وتبقى

ساهرة مع كنتيها تحدثهما عن طفولتنا – أنا وأخي – البعيدين عنها في الجيش فكانت زوجتانا تسألانها عن تفاصيل حياتنا الأولى فيزددن معرفة بنا وحباً لنا.. يتضاعف شوقهن إلينا وخوفهن علينا.. حتى نامتا حالمتين بعودتنا فيما بقيت أمي لوحدها تنظر إلى النائمين وتزيح الدثار عن أنف حفيد يشخر في تنفسه، وتنزل ساق آخر عن بطن أخته. وتتذكر رجوعات أبي من قتاله في ثورة العشرين ومن أسره في الأردن بعد أن أخذه الإنكليز من الحبانية لاشتراكه في حركة رشيد الكيلاني، حيث حدثها عن منع الأمير عبدالله لقائد الإنكليز غلوب باشا (أبو حنيك) من إعدامه مع ثلاثين من رفاقه قائلاً: "العراقيين زلم خشنة ما يستاهلون الموت". وإعارة بدو في الصحراء الغربية له فرساً أوصلته حتى مدينة الدليم.. كم تحتاج إلى حضوره الآن!.. ولكنه قد مات منذ ثلاثة أعوام حزناً على مقتل أبناء أخته في الفاو لذا تستحضره في ذاكرتها وتحدق بالصندوق الوحيد المتبقي منه حيث جمعت فيه ثيابه وأدوات حلاقته وكتبه ودفاتره وأقلامه ولم تفتحه أو تسمح لأحد بفتحه منذ موته إلا مرة واحدة حين هاجها حتى أذبلها الشوقُ إليه ففتحته ودفنت وجهها وسط الثياب، تشممت رائحته، وربما بكت، لأنها شعرت بالراحة ثم أغلقت الصندوق.

لم تنم أمي إلا لساعة استيقظت بعدها على صياح الديك فرأت ضوء الفجر من الثقب ووضعت عينها هناك لترى الديك ينفض جناحيه على ظهر الحمارة ويواصل صياحه.. تنفست بارتياح حين رأت بقرتيها واقفتين. خرجت باتجاه طشوت الغرفة المجاورة. توضأت على عجل ثم عادت وراحت تصلي صلاة الفجر داعية ربها أن يعيدنا إليها وينجيهم جميعاً من قصف كيمائي أو جرثومي أو أي سخط حربي آخر متوقع.. ثم شرعت بإعداد شوربة العدس للإفطار وتسخين أرغفة الخبز حتى استيقظ الجميع وضجت الحجرة بصخب الأطفال

وضيقهم بالمكان..

كانـــت تجلـــس جوار النافذة وعينها في الثقب متمنية لو أنها تستطيع رؤية جارتها أيضاً أو تخاطبها ولو عبر الثقوب، أمالت رأسها بكل الاتجاهات علها تـــرى وهي تبعد الأطفال الذين حاولوا لأكثر من مرة أن يقتربوا وينظروا من الثقـــب. كانت تمنعهم من ذلك منعاً قاطعاً لأنها قد قررت أن تسد الثقب بأنفها وتستنشـــق عنهم ما قد يتسلل من غاز أو جراثيم أو سخام في حالة القصف.. وأمرت ابنتي الكبرى التي كانت في الحادية عشرة من عمرها أن تقرأ لهم في القـــرآن، ففعلت ما استطاعت حتى مل بقية الأطفال وطالبوها بمزيد من الخبز والحكايـــات.. لقـــد مـــر الـــنهار ثقيلاً، طويلاً حتى حلول الليلة الثانية بعد أن أصـــبحت الحجـــرة خانقـــة بفعل بخار ودخان الطبخ والفانوس وفساء الأولاد فســـمحت لزوجتـــي أن تـــزيح البطانية من تحت الباب وأقنعت الأطفال بعدم الضحك على من يضرط منهم (لأن الذي لا يضرط يموت).. لذا لم يعد أحدهم يجـــاهد فـــي كبـــت غاز بطنه إذا ما ضايقه.. بل إن بعضهم كان يطلب من الآخريـــن الصمت كي يستمعوا إلى ضرطته ليتلقى بعدها التصفيق والتهنئات منهم على نجاته من الموت.. فراحوا يطالبون بالمزيد من الحمص والفاصوليا كـــي يزدادوا ضراطاً.. فصار في ذلك تسليتهم حتى ناموا تاركين الحجرة تعج بعطـــن غاز بطونهم وبقيت أمي ساهرة لوحدها تحدق بالصندوق حتى نهضت إلـــيه، أنزلـــته من رف الزاوية وراحت تقلب أشياءه فوجدت طاسة الحلاقة قد صـــدئت واصـــفر ورق الدفاتـــر وبهت حبر حروفها.. فتمنت لو أنها تعرف القـــراءة كي تسهر مع كلماته وتستعيد خطب الجمعة التي كان يكتبها هنا ليلة كل خميس.. اقتربت من ابنتي الكبرى وأيقظتها برفق قائلة لها سأعطيك هدية لا أريـــد الآخرين أن يعرفوا بها.. صحت ابنتي ومسحت أمي لها وجهها بماء

بــارد ثــم أخذتها معها قرب الشباك وراحت تريها محتويات صندوق جدها، أخــذت الأقلام والكتب السبعة ، وضعتها في كيس قائلة لابنتي: هذه هدية لك. سُــرت طفلتي بالأقلام أكثر من الكتب لأنها قرأت عنوان أحدها ولم تفهم شيئاً (نــيقوس كازانتزاكي/ تقرير إلى غريكو) فقالت سأقرأها عندما أكبر. وطالبتها أمــي أن تقرأ لها ما في الدفترين، فوجدت أن في أحدهما خطب الجمعة وفي الآخــر كــتابات أخــرى.. منها شتائم للحكومات وذكريات عن أصدقائه في الحروب والأسر وتفاصيل الليلة التي قضاها مع البدو في الصحراء الغربية.. كانت أمي تعرفها من أحاديثه لها عنها.. لذا لم يبق في ذهنها مما قرأته الحفيدة إلا بعض عبارات كتلك التي يقول بعضها: أن زوجتي هي أعظم ما ملكت في هذه الحياة، وأن سر قوته يكمن في أنه قد تخلى عن أي خوف من الموت لأنه واجهــه لأكثر من مرة لذا فإن ما يعيشه هو هدية.. وحياته كلها هدية لم يدفع مقابلهــا شيئاً كي يحياها.. وإننا لابد أن نموت وسنموت مرة واحدة فقط فمن العبث قضاء الحياة خوفاً من الموت الذي هو في كل الأحوال سيصيبنا عاجلاً أم آجلاً.. ثم أن صعوبات الحياة ليست مشكلة مادمنا أحياء وإذا متنا فلا مشكلة علــى الإطــلاق.. تنتهي المشاكل ولكل شيء نهاية.. فلماذا الخوف ؟ ولنعش حياتنا بقوة وثقة، ويذكر قولاً لرجل يصفه بـــ(صاحبي اليوناني الجميل):" لكل إنســان صرخته الخاصة، ترتفع في الفضاء قبل أن يموت، لذا علينا ألا نضيع الوقــت لئلا يفوتنا الأوان.. أنت إنسان ولست نعجة، وهذا يعني أنك شيء قلق وصارخ.. فلتصرخ إذاً! إن قيمة الإنسان كامنة في شيء واحد فقط: أن يعيش ويموت بشجاعة".. لــذا حــين صاح الديك أيقظــت أمي الجــميع، وعــبارة (أنت إنسان ولست نعجة) تتردد في رأسها. فتحت لهم الباب ومزقت الكارتون والبلاســتك فأضــاء نور الفجر الغرفة وخرجت إلى بيت جارتها، دقت عليها

الـــباب والـــنافذة.. ونادتهـــا: هيا اخرجوا.. لقد ذهب الخوف.. ذهب الخوف. فســـألتها الجـــارة من ثقب البلاستك: هل انتهت الحرب؟. وأجابت أمي: لا.. ولكن أنت إنسان ولست نعجة.

ليلة قصف ضاحكة

حيــن اشـــتد القصف على بغداد قررنا أن نسكر، نحن الهاربان من الجيش الداخــل إلى الكويت. لم نذق خمراً أو بيرة من قبل. الهارب تعدمه الحكومة، لكــن الحكومة لن تنشغل بقريتنا لأنها صغيرة ومنسية في البريّة، ولهذا تسمى (الفأرة)؛ بضع بيوت تعيش على بئر مالح يلف جوفه الطابوق وتسبح في قاعه ثعابيــن ملونـــة جميلة، لدغها عض خفيف كقَرص أنامل الأم لخد طفلها، وإن لدغــت لا تقــتل، لا سُــم فيها ولا خير فيها أكثر من دقائق يلعب بها الصبية المتحلقون حول البئر ترقب عيونهم الدلو الطالع على صرير بكرة الخشب التي حز منتصفها حبل الصوف. لم ير أحد الخمر في قريتنا سوانا أنا وسلطان ابن عمـــي لأنـــنا في الجيش والأستاذ موسى لأنه درس في المدينة وأصبح المعلم الوحــيد ــ هــنا ــ لمدرسة الطين التي بناها أهل القرية: غرفتان صغيرتان، واحــدة لموسى (الإدارة) وأخرى صف يجمع فيه طلاب المراحل الست وهم ســتة طــلاب فقــط؛ في كل مرحلة طالب، يفترشون بساطين حاكتهما جدتي ورســمت علــيهما عصـــافير ونجومـــاً وكلابـــاً. الأستاذ موسى يملأ غرفته بالــزجاجات والكتب ولا يلتزم بتعليم الطلبة كتب وزارة التربية وإنما يحفظهم ألفية ابن مالك وأشعار (أبو نؤاس) ولهذا فإن الناس هنا يعرفون أبا نؤاس أكثر ممـــا يعــرفون رئـــيس الجمهورية، وإن سألوا عن الزجاجات التي يجلبها في صناديق كلما ذهب إلى المدينة على دراجته ــ آخر كل شهر لاستلام راتبه ــ قال لهم:" إنه دواء.. رأسي يؤلمني دائماً". وحدنا أنا وسلطان ابن عمي عرفنا أنـــه خمـــر لأنـــنا عشنا مع جنود من كل العالم العراقي ولم نكشف ذلك لأهل القـــرية الذيـــن اكتفوا بمعرفتهم لاسم الخمر ــ ومقته ــ من خلال خطب إمام

الجامع الذي يحذرهم منه في كل جمعة وهو نفسه لا يعرفه.

الفوانـــيس مطفأة والناس نيام والكلاب تدور حول البيوت غير نابحة لأنها لا تنـــبح إلا على الغرباء والذئاب أو بقرة أو حمار انفلت من حبله. قصدنا بيت الأســـتاذ موســـى، وحين اقتربنا من دكة نومه المحاطة بزرب من قصب ككل دكـــات أهل القرية، سمعنا صوت المذياع يبث أخبار القصف وصوت الأستاذ موســـى شـــاتماً:" أولاد الخـــنازير، أبناء العاهرات..". سحب سلطان ذراعي وهمـــس لي بالتراجع لكنني مانعت وقدته معي حتى دنونا من الدكة وناديت:" أســـتاذ موسى، أستاذ موسى". فسكت صوت المذياع، نزل الأستاذ وهو يحكم ربـــط ســـرواله ويقرب وجهه من وجهينا كي يتبينها على ضوء القمر فشممنا رائحـــة المعـــتق في أنفاسه. صمتنا ونحن لا نعرف ماذا نقول له حتى سمعت ســـلطان يغـــص بجملة شاكية وهو يوشك على البكاء:" إنهم يدمرون بغداد يا أســـتاذ". أطـــرق موسى برأسه لبرهة ثم استدار إلى دكة نومه وصعد. سمعنا امرأته تسأله:" إلى أين؟". وهو يجيبها:" إلى المدرسة". ثم نزل وفي إحدى يديه المذيـــاع الصغير وقميص وفي الأخرى زجاجة وقال:" هيا بنا". فسرنا معاً في دروب القرية الصامتة إلا من هسهسة الحصى تحت أقدامنا. قال وهو يدفع إليّ الـــزجاجة كـــي يـــرتدي قميصه:" المسكينتان؛ زوجتي والزجاجة، كنت أشتد علـــيهما كلما اشتد القصف". وصلنا المدرسة المجاورة للبئر في أطراف القرية وفـــتح الأســـتاذ قفـــل باب غرفته (الإدارة) بمفتاح مربوط على رسغه بسلسلة صغيرة، دفع الخشب وسحب من خلفه صخرة بحجم الحذاء وضعها أمامه كي يـــبقى مفتوحاً ثم أشعل عود ثقاب وتقدم إلى الحائط المقابل فأوقد فانوساً معلقاً علـــيه بمســـمار طويـــل أصبح لونه أسود هو والبقعة المحيطة بالفانوس بفعل الدخـــان، منضدة خشبية، كرسيان، رفوف كتب، صور لوجوه لا نعرفها تبدو

علـــيها ملامـــح الجديـــة والتفكير، خريطة قديمة للعالم، لوحات ،وفي الزاوية تراكمـــت صــــناديق زجاجـــات الخمر، أكثرها فارغ وبعضها لم يفتح. صار الأستاذ وراء المنضدة وسحب صندوقاً فارغاً أعطاني إياه فجلست عليه وجلس قبالتي سلطان على كرسي والأستاذ على كرسيه الآخر. وضعت الزجاجة التي فـــي يدي على المنضدة وتناول هو زجاجة جديدة أوقفها إلى جانبها ثم أخرج مـــن العتمة ثلاثة كؤوس وجرة ماء وصحناً وقدراً ثقيلاً ومنفضة وضعها كلها تـــباعاً. شـــرعنا، أنا وسلطان بترتيبها، لكنه أعاد ترتيبها بشكل آخر كي يتسع ســـطح المنضدة للمذياع وعلبة السجائر وكتاب. فتح القدر فإذا به ملئ بحبوب الـــباقلاء المســـلوقة. غرف منها بكفه حتى ملأ الصحن وأنزل القدر ثم مسح أصـــابعه بمنشـــفة معلقـــة علـــى زاوية مسند كرسيه، سكب في الكؤوس من الـــزجاجة خمـــراً ومن الجرة ماء ووزعها علينا ثم أعقبها بسجائر أشعلها لنا، وأخرجـــنا نحن علب سجائرنا لنضعها على الطاولة أيضاً فيما ضغط هو على زر المذيـــاع وراح يقلـــب خـــيطه بين المحطات التي كانت كلها تتحدث عن تفاصيل قصف التحالف لبغداد. كان الأستاذ موسى يملأ كأسه ويفرغها في فمه دفعـــة واحدة، يزداد في ذلك كلما ازدادت أنباء القصف، أما نحن فنرتشف من كؤوسنا ببطء، نتشمم ونستطعم ونكرز حبوب الباقلاء، نحدق بالأستاذ بصمت.. شعره منفوش، قميصه مفتوح، ملامحه محطمة ومتوقدة في آن.. لم يكن على هيئـــته التي يعرفها الناس ويوقرونها، وجهه أكثر شبهاً بوجوه الصور المعلقة علـــى الجدران لكنه بلا لحية ولا نظارات ولا إصبع على صدغه أو كف على ذقـــنه كما في بعضها.(ما أسعد العيش لو أن الفتى حجرٌ/ تجلو الحوادث عنه وهـــو ملموم). بدت تغضنات وجهه ــ رغم حدتها ــ واضحة تشير إلى عمر تجـــاوز الأربعين. شعرنا؛ سلطان وأنا، بدوار بعد انتهائنا من كأسين وصحن

باقلاء وسجائر لا ندري عددها، بينما يزداد هو انفعالاً فيضرب حافة المنضدة بكفه أو يصفع فخذه كلما اشتد القصف في المذياع وأصابعه تطارد المحطات.. وبعـــد فترة لا نعرف طولها، كسر هو الصمت حين راح يحدثنا عن بغداد في عهد أبي نؤاس وأسماء أشخاص آخرين سمعنا ببعضها ولا نعلم عنها شيئاً، أما هـــو فيـــتحدث عـــنها وكأنه يعرف كل هؤلاء الناس بأسرار وتفاصيل حياتهم وأفكـــارهم.. تكلـــم عن أبي نؤاس كثيراً، نوادره.. ضحكنا، أشعاره في الخمر والولـــدان، ثم انتقل للحديث عن ذكرياته أيام دراسته في بغداد ولقائه بالسياب وحســـين مـــردان وعـــن مقهى حسن عجمي والمقهى البغدادي في شارع أبي نـــؤاس على شاطئ دجلة حيث حضر سهرة غنى فيها يوسف عمر. ووجدت نفســـي .أعيد عليهم قصة حبي لفضيلة البغدادية أيام تأجيرنا لغرفة متداعية في (حي الفضل)، عندما كنا أنا وسلطان نتدرب في معسكر الرشيد، فكرر سلطان عبارته التي يقولها لي كلما تحدثت عن فضيلة ـــ ربما هذه المرة بقصد تخفيف قلقـــي عليها ـــ:" أمها أجمل منها".. فصحت به:" أسكت أبو العجائز". ضحكنا ومـــلأ الأســـتاذ موســـى صـــحن الباقلاء مرة أخرى وهو يعقب:" إن للعجائز جمالياتهن الخاصة". وأبصرنا فأرة تقترب من القشور المتناثرة على الأرض، تتشـــممها، فحاول سلطان طردها:" هش.. هش". فلم تهرب،"لماذا لا تهرب؟" أجابـــه الأســـتاذ:" وإلـــى أيـــن تهرب، هذا وطنها، هي فأرة واسم هذه القرية الفـــأرة".. لا أتذكر ربما ضحكنا عندها وعاودنا الصمت لنتابع أخبار القصف، وقـــد أصـــبحنا نشرب كؤوسنا دفعة واحدة مثله، وأصبح سمعنا أقل وضوحاً ونطقـــنا أكثر صعوبة. سأل سلطان عن معنى كلمة (تحالف) التي تتردد كثيراً فـــي الأخـــبار، وراح الأستاذ يفسر له ويتحدث عن تحالفات الحروب العالمية والخـــروف الأســـود والخروف الأبيض والرجل المريض، وقال سلطان:" لم

أفهـــم". صـــمت الأســـتاذ قليلاً ثم نهض ووقف تحت الفانوس، أنزل سرواله، أخرج عضوه، حركه بيده حتى تمدد وانعكس ظله على الجدار المقابل للفانوس بحجـــم مدفـــع وقـــال:" تعالوا هنا وافعلوا ما فعلت". فنهضنا وخلعنا سراويلنا وحركـــنا أعضاءنا، فقال:" اقتربوا" فاقتربنا حتى تقاربت أعضاؤنا فجمعها في قبضـــته وقـــال لسلطان:" أتُرى لو أدخلنا هذه الأشياء مجتمعة في أستك.. في خمســـتك، ألا تشـــققها؟". قال سلطان:" بلا". فقال الأستاذ:" هذا هو التحالف.. ارفعوا سراويلكم". وما أن أكملنا ربط سراويلنا حتى سمعنا وقع خطوات تدنو من الباب، فسكتنا ورحنا نتطلع إلى بعضنا وإلى الباب بتوجس وانتظار إلى أن أطـــل علينـــا رأس جحش صغير، ناصباً أذنيه، فعلق الأستاذ:" ربما يريد أن يشترك في التحالف أيضاً" فضحكنا وأضفت:" أو يريد أن يسكر". قال موسى:" هاه.. صحيح لا بد أنه عطشان". وقفنا قليلاً ننظر إلى الجحش والجحش ينظر إليـــنا حـــتى أشار لنا الأستاذ أن نحمل صندوقاً مليئاً بالزجاجات المليئة ففعلنا وتبعـــناه إلى البئر، وهو يحمل المذياع بعد أن وضع مؤشره على محطة تبث أغنيات أجنبية راقصة. رفعنا الدلو، فككنا عنه الحبل ثم رحنا نفتح الزجاجات ونســـكبها فيه بمرح حتى أوشك على الامتلاء، فقربناه إلى الجحش الذي أنزل بـــوزه فـــيه، تشممه ولم يشرب، رفع هامته وظل واقفاً في مكانه ينظر إلينا. نهضـــنا إلـــيه وأمســـكناه بقوة حتى غطسنا منخريه في الخمر فكَرع وانتفض واهـــتاج ثم سكن، فيما جلسنا نحن على حافة جابية الماء حيث رائحة صوف الأغـــنام والأرض المغطـــاة بالبعرور؟ كان القمر يمرق بين الغويمات، يسطع ويختفـــي وبغداد بعيدة عنا لكنها أقرب الصور في رؤوسنا. الجحش واقف في مكانـــه بعد أن أدار رأسه عنا وراح يحدق في المدرسة التي تبعد عنه عشرة أمـــتار تقريباً، وفجأة انطلق راكضاً صوبها بكل قوته حتى نطح الجدار برأسه

وارتــد ساقطاً على مؤخرته فانفجرنا بالضحك عليه وصفقنا له. نهض بهدوء وعـــاد ليقف في مكانه السابق، وقفته السابقة؛ محدقاً في المدرسة للحظات رفع الأســتاذ خلالها صوت الأغنيات الأجنبية. انطلق الجحش مرة أخرى بسرعة: طُــربك.. طُــربك.. طُربك.. طراااااخ؛ نطحَ الجدار بقوة وارتد ساقطاً على الأرض فصــفقنا له ونحــن نضــحك ملء أفواهنا حتى سقطنا على الأرض ممســكين ببطونــنا ونتدحرج على الحصى والتراب والبعرور. نهض الجحش مــرة أخرى وعاد إلى مكان وقوفه، فنهضنا نرقص مع إيقاع الأغاني، نترنح والجحــش يعاود انقضاضاته على الجدار مرة بعد مرة. جدار (الإدارة) انفطر ونحــن بلــنا فــي سراويلنا من شدة الضحك، نسقط وننهض. الجحش يحدق، يــركض، ينطح، يسقط، ينهض ويعاود.. هكذا حتى همد في مكانه لا يستطيع الحراك، فحملنا المذياع والدلو نطوف به على حمير القرية واحداً واحداً، نسقيه عــنوة ثــم نفــك حبله ونطلقه، حتى أطلقناها كلها سكرانة، تركض: طُربك.. طُربك..طُربك.. تنطح الجدران: طراااخ، والكلاب تنبح خلفها: طُربك.. عو.. عــو عــو طُربك، حتى استيقظت القرية كلها عند الفجر وهي تطارد حميرها وكلابها وتضحك: طُربك عو هاه هاه هاه.. طُربك طُربك.. عو عووووو.. خا خا خا.. طُربك عوو وخا خا.. طراااااااخ خ خ.

القصف و دار العدالة المائلة

المبنى المصبوغ بالأبيض لدار العدالة في مدينة كركوك مائل منذ تشييده.. فماذا حل به الآن وكيف؟. هل مازال مائلاً كما هو؟. هل تم تقويمه؟. هل انهار أثناء القصف؟.. المشكلة هي أن أهالي كركوك أنفسهم يختلفون في رواياتهم حول هذا الأمر.. وإن كانوا جميعاً يرددون العبارة نفسها التي أصبحت مثلهم الخاص في حالات الخيبة: "إن حظي مائل مثل مبنى المحكمة".

* * *

بعد أن طالت الحرب لأعوام لم تعد الأبقار تذعر من القصف مقتلعة أوتادها، ولا تنفر الحمير رافسة أصحابها، ولا تفر الكلاب بعيداً في الآفاق، ولا يبكي الأطفال لأنهم صاروا يطورون ألعابهم الحربية عبر المراقبة ويحلمون بالطيران. لم تعد الناس تختبئ من القصف فسكان المدن قد أدركوا أن الطائرات تريد المصانع وآبار النفط ودوائر الحكومة وأبراج الاتصالات ولا تقصد بيوتهم، وفيما لو أنها أخطأت ملقية ببيضها الجهنمي على بيوتهم فسوف تهدها على رؤوسهم.. فما معنى الاختباء؟ لذا راحوا يصعدون إلى الأسطح يتفرجون عليها وقطع الجبن في أيديهم صباحاً فيما يكرزون بذور زهرة عباد الشمس أوقات القصف المسائي، ومنهم من وجد في ذلك تسلية ومصدراً للرزق، حيث يفرشون الحصران على الأسطح حول أقداح الشاي وكعك الأعياد يتراهنون على معرفة أنواع الطائرات المغيرة من أصواتها، ويحزرون فيما إذا كانت قد أصابت الأهداف وفق صوت الانفجارات. أما الجنود في الجبهة والذين ملت حبيباتهم من انتظارهم ورأوا في إجازاتهم الأجانب والمعوقين يستمتعون بالنساء ويمتهنون الحب يقبض أحدهم في الليلة ما يعادل

نصـــف راتب جندي مكلف، راحوا يخرجون أذرعهم من الملاجئ عل الشظايا تصـــيبها أو يثقــبها القناص، ومنهم من يتمدد في الخندق ويرفع إحدى ساقيه عالـــية بانتظار أن تبترها قنبلة تائهة. فإن كانت الإصابة بسيطة سيحصل على إجازة قد تمتد أشهراً حتى تشفى يستغلها في الراحة أو الزواج من حبيبته، وإن قطعــت الساق أو الذراع فهذا خلاصه. كذلك سيحوز على الخلاص من تقتله القنــبلة فيــتحرر مـــن الخوف والاتساخ وتعسف الضباط وينال أهله المكافأة وراتــب (الشـــهداء). هكذا حسم سلمان أمره فعرى ساقه ورفعها في الخطوط الأمامـــية مـــن فــتحة ملجـــأه أمام مراصد العدو الذي لم يتأخر في أن بادره بالقصـــف المدفعـــي فطار مفتتاً مع أكياس الرمل والملاعق ورسائل الآخرين الذين لم يستطيعوا لملمة أوصال جسده لأن أكبرها كان إبهام القدم. لذا لم تصل جثـــته إلى أمه وعليها الصبر طويلاً بانتظار لملمة أوراق المعاملة كي تقبض المكافـــأة والراتب، فها هي منذ أشهر تستيقظ مع قصف الفجر على كركوك، تصـــلي، تفطـــر علـــى بيضة، تحمل عكازها الهدية من عجوز غجرية مرت بكـــركوك قبل عشرين عاماً. قرأت كف أم سلمان قائلة لها:" على يديك ستُدرأ صدوع ويستقيم مائل ويزداد البياض نصاعة".

تغـــادر أم ســـلمان بثياب الحِداد بيتها في (الصوب الكبير) المجاور للقلعة القديمة التي تحولت فيما بعد إلى معسكر أيام حرب الخليج الثانية، تمر بسوق (القيصرية) و (المصلى)، تنظر إلى لهيب النار الأزلية يضيء أطراف المدينة وتفكـــر في كل مرة بتغيير خط سيرها وبالعبور على (الجسر الرابع) أو على الآخـــر الذي أسمته الحكومة (جسر النصر) فيما يسميه أهالي كركوك (جسر الـــولادة) لأن مستشـــفى الولادة قائم عند مدخله ولأنهم لا يعرفون ماذا يعني (النصـــرَ). لكـــن أم سلمان ظلت تعبر باتجاه (الصوب الصغير) حيث (منطقة

قوريـــا) و(الحمّامـــات) ماشية ببطء على (جسر الشهداء) فوق (نهر الخاصة) الـــذي شـــح ماءه وصار أخضر يجري بين أكوام النفايات حاملاً معه أعقاب السجائر وحفاظات الأطفال وعلب العصير الفارغة. وحين تصل إلى مبنى دار العدالـــة أو المحكمـــة كما يسميها الناس، تكون الطائرات المغيرة قد غادرت مخلفـــة ورائهـــا أعمدة الدخان في أطراف المدينة ،وتطلع الشمس. ثم لا تعود حـــتى مغيبها لأن الطائرات تحب الإغارة في العتمة. تدخل أم سلمان مع أول الداخلين من الموظفين الذين صارت تعرف أين يكون مكتب كل واحد منهم في الطوابـــق الثمانـــية، مـــثلما هـــم جميعاً يعرفونها بسبب مراجعتها الصباحية المنـــتظمة، فيتجه أحدهم مباشرة إلى الفاكس وتجلس هي على المقعد ذاته في صـــالة الانتظار حتى يعود ليخبرها بأن أوراق معاملة ابنها سلمان لم تأت من العاصـــمة بعـــد، فيتجه الآخر إلى فض رسائل بريد مساء الأمس ليعود إليها بالإجابـــة نفســـها. تزفر، تنهض ثم تشكرهم وتخرج لتجد كُتّاب العرائض قد نصبوا طاولاتهم، تحييهم ويسألونها، مثل كل يوم، هل وصلت أوراق سلمان؟ ويعرف بعضهم الإجابة مسبقاً لأنها لم تتأخر عما هو معتاد في الداخل فيشرع مباشـــرة بسرد حكايات كثيرة لأناس تأخرت أوراقهم لأعوام لكنها في النهاية ستصـــل فاصـــبري وكونـــي مطمئنة يا حاجّة. يجيء الباعة المتجولون على عرباتهم فتعرف منهم نتائج قصف اليوم. وتبقى أم سلمان هناك لساعات فليس لديهـــا مـــا تفعله، حتى صارت تعرف الجميع؛ أمهات مثلها قتل أولادهن في الحـــرب، نســـاء شـــابات أرامـــل يجرجرن أطفالاً تقرص خدودهم أم سلمان وتمـــنحهم قطعة حلوى،أصحاب المحلات المجاورة لبناية المحكمة في (شارع الأوقـــاف) كمدير (سينما العلمين) الذي يقول بأن الناس تحب الأفلام الهندية، وعمـــال (محل باتا للأحذية) وبائعي التبغ وحراس مركز الانضباطية بقبعاتهم

الحمر وأنوفهم المعقوفة.

بعـــد ســـبعة أشـــهر على هذه الحال نفد ما ادخرته أم سلمان طوال حياتها فاشـــتكت ذلك إلى أصحابها كُتّاب العرائض واقترحوا عليها أن تفتح لها هناك (بَســـطة) تبـــيع فـــيها الفطـــور لهـــم وللموظفين وللمراجعين ورواد السينما والانضـــباطية وأقرضها صاحب (محل باتا) عشرين ديناراً اشترت بها سخاناً صغيراً وإبريق شاي كبير ودزينتين من الأقداح، فيما ذهبت بما تبقى إلى سوق (أحمد أغا) وجاءت بالبيض المسلوق وأرغفة خبز وشرائح من الجبن والقيمر فأعادت .القرض إلى صاحبه في اليوم الثالث بعد أن كونت ما تحتاج إليه من رأس مال لأن الجميع يتحلقون حولها جوار السياج الحديدي الواطئ لمبنى دار العدالة، صارت تبكر أكثر في استيقاظها وتمر بسوق (أحمد أغا) قبل المجيء إلى (بسطتها) حيث تشهد وحدها اهتزازات البناية المائلة البيضاء لدار العدالة عـــندما تأتي طائرات القصف. لم تُزعج مهنتها بائعي المأكولات الأخرى على العـــربات المـــتجولة فهي تقدم الإفطار بينما يبيعون هم للغداء أقداح الحمص والـــباقلاء وحساء العظام. وكانوا يطلبون منها أحياناً بعض الملح والبهارات. تجلـــس النســـاء حولهـــا على الأرض بعباءاتهن السوداء يحدثنها عن مرض الحصبة الذي أصاب أطفالهن وعن طيبة رجالهن المقتولين وسير معاملاتهن فـــتقدم لهـــن النصـــائح في كيفية التعامل مع الحصبة، وتشد من صبرهن بأن تضرب لهن المثل بنفسها حيث أوراق ولدها سلمان لم تصل حتى الآن، سامحة لأطفالهن أن يلعبوا بكل أشيائها إلا العكاز. تكلم كل شخص بلغته سواء أكانت التركمانـــية أم الكـــردية أم العربـــية. ولا تمـــل من تكرار إجاباتها التفصيلية للمتســـائلين عـــن أســـباب التصـــدعات المتزايدة في مبنى المحكمة وعن سر ميلانها، فالتصدعات بسبب اهتزازات القصف، أما الميلان، فكما أخبرها عامل

الحديقة الذي يشتغل فيها منذ إنشائها، فهو بسبب المهندس البغدادي الذي سقط مـــن إحـــدى عماراته في العاصمة قبل شهرين ومات، وليس بسبب المهندس الهـــندي الذي ظل ينافسه البغدادي حتى أزاحه عن هذا المبنى لأنه جاء ينتقد تشييده لها على أرض رخوة واقترح عليه تصحيح أخطاء الهندسة في الأسس ودعمها بمساند جديدة، لكن البغدادي رفع ضده تقريراً إلى العاصمة فطردوه، كما لا تنسى أم سلمان أن تضيف الحكاية التي شهدها عامل الحديقة حين قدمت أبقـــار فـــي هذا الشارع ورآها المهندس الهندي من على سقف الطابق الثامن فأسرع نازلاً في صندوق حمل الإسمنت المعلق بالحبال على ذراع الرافعة وما أن وصــــل الأرض حتى جثا على ركبتيه في الشارع وألصق جبهته بالإسفلت مطـــبقاً كفـــيه فـــي أعـــلاه ومتمتماً بعبارات غامضة وظل هكذا وسط دهشة الآخريـــن حتى مرت الأبقار جوار رأسه وابتعدت. تقول أم سلمان بأن عامل الحديقـــة يقـــول إن الهندي قد أجابهم حين سألوه عن ذلك، بأنه يعبد الأبقار — والعياذ بالله — يقول إنها ربه. ولهذا فأم سلمان لا تتفق ورأي عامل الحديقة في قوله إن المهندس الهندي أفضل من المهندس البغدادي، فكيف نثق بأن يهندس دار عدالتنا رجل يعبد الأبقار؟. وحدها أم سلمان كانت تشهد بنفسها اهتزازات المحكمـــة واتســـاعات تصدعاتها عند الفجر وثمة من يقول بأنه قد رآها تسند المبـــنى بعكازها كلما أقبلت الطائرات، ظانة بذلك أنها تمنعه من السقوط، أما الآخرون فلم يعودوا يعبأون بذلك ولا ينتبهون إليه إلا إذا رأوا نزيز الماء من الشـــقوق الـــذي راح يـــترك خطوطاً طويلة بلون الصدأ على الجدران البيض فـــيقولون إن الســـبب هي أنابيب المياه فلا بد من إصلاح الحنفيات. وكانت أم سلمان توصي الموظفين واحداً واحداً بأن لا يصعدوا درجات السلم راكضين وأن لا يمارســـوا الحب فيما بينهم على طاولات المكاتب أو بين خزانات المياه

علـــى الســـطح لأن الحب اهتزاز أيضاً فيبتسم الموظفون ويربتون على كتفها بحب كي يطمئنوها، لقد صارت بمرور الوقت تحبهم وترى فيهم جميعاً ولدها ســـلمان، لـــذا فقد شكرت الله لأنهم لم يكونوا في المبنى الأبيض حين شهدت بمفردها انهياره ذات فجر قاصف.

*　　*　　*

هذا ما روته امرأة تدعي معرفتها، ويروي البعض بأن المحكمة قد سقطت عليها وماتت، فيما يؤكد البعض الآخر ممن يسكنون جوار المحكمة عكس ذلك تمامـــاً، حيث يقولون بأن أم سلمان لم تمت وأن بناية العدل لم تسقط.. بل أن التصـــدعات كانت تلتحم واحداً بعد الآخر ويستعيد المبنى استقامته شيئاً فشيئاً عـــند انتهاء كل قصف بفضل دعاء أم سلمان حباً بالموظفين والمكان وحفاظاً على أوراق معاملة ولدها وأوراق معاملات قتلى الحرب الآخرين، فكانت كلما ســـمعت أزيـــز الطائرات تجثو على ركبتيها ثم تسجد على إسفلت الشارع في البقعة ذاتها التي سجد فيها المهندس الهندي وتجهش بالدعاء.. أو بالسحر، كما يفســـر بعضهم، ودليله أن عكازها هو هدية من عجوز غجرية مرت بكركوك قـــبل عشـــرين عاماً قرأت كف أم سلمان قائلة لها:"على يديك ستُدرأ صدوع ويســـتقيم مائل ويزداد البياض نصاعة". ثم منحتها العكاز الذي ظلت أم سلمان تحملـــه معها على الرغم من عدم حاجتها إليه، تحمله بلا سبب ودون أن تفهم كلمـــات الغجرية، لكنها لم تنسها. لذا فالذين ادعوا رؤيتها تسند المبنى بعكازها عند القصف يقسمون بأنهم كانوا يبصرون شبح المهندس الهندي، كلما سجدت أم ســـلمان فـــي بقعـــة سجوده؛ رأيناه يدور حول أسس المحكمة عند القصف غارســـاً أصـــابعه في الأرض الرخوة ثم يصعد بأجنحة خضراء إلى الشقوق العالـــية يمســـحها بلعابه فتلتئم.. وهكذا، كل فجر، إلى أن انتهت الحرب فعاد

بانتهائها مبنى دار العدالة بلا تصدعات، بلا ميلان.. مستقيماً وناصع البياض..
فهل استقامت دار العدالة حقاً؟.. أين هي؟.. وأين أم سلمان؟.

القصف والمراحيض

أهــلاً وسهلاً بك.. اعتبر نفسك في بيتك. لم يكن عنوان شقتنا صعباً.. أليس كذلــك؟ فهذا الحي معروف في مدريد بالمهاجرين.. ماذا تشرب؟ قهوة؟ شاي؟ عصــير؟ مــاء؟.. أوه.. تريد دخول الحمّام؟ أنا آسف.. هل تستطيع الاحتمال قليلاً؟ فقد دخل قاطع إلى الحمّام قبل نصف ساعة وسيخرج بعد نصف ساعة.. إنــه شــريكي في هذه الشقة وهو صديقي منذ الطفولة، هو الذي سينفعك في مشــروعك المســرحي لأنه يؤلف ويمثل ويُخرج ويكتب النقد المسرحي. لقد اســتمر هــو، أمــا أنا فأعمل الآن ميكانيكي سيارات، تحولت إلى هذا بعد أن خدمــت فــي الجيش كميكانيكي دبابات.. ولكنني مازلت أتابع المسرح وأقرأ بعض الروايات العاطفية.. هل يمكن تسميتها كذلك: روايات عاطفية؟ فربما أن كل أنواع الكتابة هي عاطفية، مثلما أن تصليح كل أنواع المكائن هو ميكانيك.. أتقصــد هذه الصورة التي في الزاوية؟ إنها (اللبوة الجريحة) والتي هناك هي (الثور المجنح).. لا.. لا.. الثور المجنح هو غير أسد بابل. وتلك الجميلة هي (ســيدة ســومرية) هــذه هي الصور الوحيدة التي جلبناها معنا من العراق.. لاحظتَ كيف كان السومريون يرون جمال المرأة في العيون الواسعة؟.. قريتي فــي العــراق تقع تماماً فوق آثار العاصمة الآشورية ، لذا كنا دائماً نعثر على جــرار وألــواح طينة وأساور فضية ومقابر لكن أهلي لا يعيرون ذلك أهمية ويعــيدون استخدام هذه الأشياء مرة أخرى، أذكر من ذلك أن عتبة بيتنا كانت مــن ألــواح مكتوبة وأساور أمي وجدتها في جرة مع عظام تحولت إلى رماد أصــفر، وأن فــتحة المــرحاض كانت خوذة جندي آشوري ثقبها أبي وثبتها

هــناك.. لقــد ضـــاعت آثار العراق يا أخي، بعضها سرقها الإنكليز والألمان والفرنسيون وبعضها باعها رجال في الحكومة أو هربها الناس البسطاء بسبب حاجــتهم إلى الطعام في سنوات الحصار.. أما تلك التي في الواجهة فلابد أنك تعرفها إنها لوحة (الجرنيكا) لبيكاسو.. مدهشة هذه اللوحة.. أليس كذلك؟ قاطع يقول بأنها أفضل عمل فني عَبَّر عن آثار القصف.. لقد زرنا بلدة الجرنيكا في عطلة الصيف الماضي ووجدناهم مازالوا يحتفظون بجذع الشجرة التي حطمها القصف وأنشأوا متحفاً ليشهد على هذا الحادث.. تخيل لو أننا أردنا نحن أيضاً فــي العراق أن نقيم متحفاً للمقصوفات.. عندها لابد أن نسوّر العراق بأكمله.. هــل رأيــت فـــي الـــتلفزيون مشهد المليون نخلة في شرق البصرة؟ لقد قطع القصف سعفها وتركها مجرد جذوع نابتة.. بالنسبة لي فقد بكيت عندما رأيته.. كــيف الحال عندكم الآن في الجزائر؟.. آه.. إن ما يحدث هناك مؤسف حقاً.. بالمناســبة، لـــي صديق شاعر عراقي يقيم في العاصمة، له قصيدة جميلة عن (الطــوارق) وحدثني في آخر مكالمة هاتفية بيننا.. أنه كان يمشي ذات ليلة مع صديق له في أحد الشوارع فاقترب منهما رجل ممزق الثياب وملطخاً بالدم أو بصــبغ أحمــر طالباً أن يمنحاه بعض النقود لأن سيارته قد انقلبت به، فأجابه صــديق صــديقي، وهو عراقي أيضاً: إذا كانت قد انقلبت بك سيارة فنحن قد انقلب بنا بلد بأكمله.. أوه أنا آسف.. أرى بأنك تحتاج إلى دخول الحمام فعلاً.. ولكــن هلا صبرت بعض الشيء؟ سيخرج قاطع بعد قليل.. وقاطع ليس اسمه وإنما اسم أبيه ونلفظ القاف باللهجة العراقية كافاً مخففة (كاطع) لقد تعودنا نحن أصــدقائه أن نــناديه بكــاطع منذ الطفولة، ولا أدري بالضبط ما هو السبب الحقيقي، فلذلك أكثر من حكاية، منها أن مدرسنا المصري للفيزياء كان يناديه باســم أبيه، ومنها ــ ما حدثنا هو عن أبيه ــ حين دعا عاملاً لبناء درَج جديد

إلى الطابق الثاني في بيتهم، فراح هذا العامل يقترح على والده بالتفاصيل أشكالاً متعددة من السلالم، سمى أحدها بـــ (فك الأسد) مبرراً ذلك بالشبه وبأنه يقطع سقف البيت في أصغر مساحة ممكنة، فصاح به الحاج قاطع: أنا قاطع وقد قطعت نَفَسي باقتراحاتك، شيد لي أي درج وخلّصني.. بالمناسبة قاطع الابن من برج الأسد أيضاً.. ولكن.. ربما.. أيضاً أن حكاية الاسم قد جاءت من تكراره لعبارة:" قُل الحق وإلا قطعت لسانك" في أحد أدواره من المسرحيات التي كنا نقدمها في المدرسة الإعدادية.. آه.. أنت تريد الدخول إلى الحمّام بشكل عاجل.. اطمئن سيخرج الآن.. سيخرج الآن.. وبالمناسبة فلمسألة الحمّام هذه حكاية أيضاً لا يعرفها إلا القريبين من قاطع وحين يسمعها البعض يظن بأنها نكتة.. لكنها في الواقع قد حدثت فعلاً وهي التي غيرت علاقته بالمراحيض.. أو عفواً بالحمّامات.. فقبل أن يدخل الجيش كان يكره المكوث طويلاً في المراحيض.. بل يكره التوجه إليها أصلاً.. وكان أسرعنا بالخروج منها فنعلق على ذلك بأنه لا يتغوط وإنما يفسي فقط ويخرج.. لكنه في الحقيقة.. لا أعرف كيف أصفه لك.. طُهرانيّ؟ مثاليّ؟ رومانسيّ؟ حالم؟.. لا أدري.. كان يكره الفضلات واللعب معنا في المزابل، يحب العطور ومنظّم في كل شيء.. ولا يضيع وقته لأنه كان يريد أن يصبح شخصية مهمة في المستقبل.. يدرب نفسه على ذلك ويتصرف ويعيش على هذا الأساس أحياناً.. لذا أذكر مثلاً أنه قد سقط مغشياً عليه فوق خشبة المسرح حين ضج الجمهور بالهتافات والتصفيق له عندما انتهينا من تقديم مسرحية في المدرسة كان هو بطلها.. نثرنا الماء البارد على وجهه وحملناه إلى البيت، وسألته هناك عن سبب إغمائه فقال بأنه لم يحتمل لحظتها هذا التناقض بين تصفيق حشد الجمهور له وهتافاته إعجاباً به فيما هو يقف أمامهم وفي داخل بطنه خراء..

أرأيت إلى أي حد كان حساساً تجاه هذه المسألة؟ ولكن ذلك قد تغير إلى عكسه تماماً حين كان ذات ليلة في الخطوط الأمامية من جبهة الحرب في موضع مع بعض رفاقه الجنود وداهمته الحاجة الملحة للتغوط فيما كانت قذائف القصف تمطر حولهم راصدة كل حركة فقالوا له: افعلها هنا وبعد انتهاء القصف احملها بالمجرفة إلى الخارج. لكن قاطع لن يفعل ذلك ولو كلفه الأمر حياته.. فهو لا يقبل قطعاً أن يكشف عن مؤخرته أمامهم حتى لو أطفأوا الشمعة.. ثم ماذا عن الرائحة وصوت الضراط؟.. حاولوا معه بكل السبل ولكن ذلك مستحيل طبعاً.. فخرج راكضاً، حانياً الظهر مبتعداً عن الموضع الملجأ وقرفص معرياً مؤخرته ثم أنزل ما في بطنه في اللحظة نفسها التي رأى فيها قذيفة تسقط على ملجأ رفاقه وتدمره معهم.. بقي جامداً للحظات محدقاً بما تناثر في الفضاء حتى استقر الخراب على الأرض فأنزل رأسه ونظر، على ضوء الحريق، إلى كومة الغائط بين قدميه وخاطبها: من أين أَقَــبِّــلُكِ؟.. (من وين أبوسك).. نعم .. صدقني.. أنت تضحك.. إذاً سيخرج هو الآن من الحمّام واسأله بنفسك.. لقد غيَّر هذا الحادث علاقته بالمراحيض تماماً فصار يرتاح بالمكوث فيها طويلاً.. يشعر بالراحة.. بل ويفلسف الأمر أحياناً، أنه يعرف عنها ما لا يعرفه أي شخص آخر أعرفه.. ففيها يتذكر ويفكر، لقد خرجت منها موضوعات أفضل أعماله المسرحية وأفضل مقالاته.. إنه يدخلها عابساً، أو كلما واجهته مشكلة فيجد حلها هناك ويخرج سعيداً مبتسماً.. يقرأ فيها كثيراً، وسترى أنت بنفسك حين يخرج الآن وتدخل للتغوط.. أو عفواً فربما أنت تريد أن تبول فقط.. سترى رفوف كتبه تحيط بك من كل الجهات ودفاتر ملاحظاته و.. أوه.. ها هو يخرج.. إنه مبتسم ألا تراه؟.. أقدم لك قاطع.

حياة محكومة بالقصف المؤبد

ولد جلال الأفغاني تحت القصف الإنكليزي وأحب فاطمة تحت القصف السوفيتي ومات معها في ليلة عرسهما تحت القصف الأمريكي.. لقد عرفت حكايته من ابن عمه هنا في مدريد حيث نعمل معاً في مخزن تاجر صيني.

* * *

شارك والد جلال الأفغاني بقية رجال القرية في حفر ملاجئ بين بيوتهم الطينية بعمق متر ونصف وبحجم غرفة، سقفوها بصفائح الزنكو وغطوها بالتراب وغرسوا فوقها بعض الأشواك ثم أمروا عائلاتهم باللجوء إليها عند سماعهم أزيز الطائرات، وغادروا إلى المغارات في الجبال كي يحاربوا الإنكليز.. وبعد أسبوعين من ذلك جاء جلال إلى هذا العالم، ولدته أمه في الملجأ المجاور للبيت حين كانت الطائرات تقصف معسكراً لتدريب المحاربين في أطراف القرية، ساعدتها نساء الجيران اللاتي كن معها في الملجأ على ضوء قنديل زيتي وسط التحديق الصامت للأطفال بين ساقيها حتى خرج جلال باكياً فبكوا لبكائه وهم يرونه مصبوغاً بالدم لكنهم ضحكوا بعد لحظات حين رأوا الفرح على وجوه النساء وابتسامة أمه التي كانت، تتعذب قبل قليل فيما توزع عليهم الآن قطع حلوى من كيس سحبته من تحت وسادتها..(هنا توقف ابن عم جلال عن القراءة وقال لي: إنك تخلط بين مولد الابن ومولد أبيه، فوالد جلال هو الذي ولِد في الملجأ تحت القصف الإنكليزي وأن جده هو الذي حاربهم حتى الاستقلال، أما جلال فقد ولد في الملجأ نفسه ولكن تحت القصف السوفيتي) فحين صار جلال بارتفاع البندقية كان الإنكليز قد رحلوا وعاد والده

كي يأخذه معه لرعي الأغنام، وهناك في البرية يحدثـه عـن تـاريخ بـلاده أفغانستان وأجداده المحاربين ويعلمه الصيد وفنون القتال، الاختفاء منبطحاً أو مقرفصاً في حفرة أو خلف صخرة أو وسط الدغل ثم التصويب على الهـدف بإغلاق عين وفتح الأخرى الملتصقة بالبندقية والإطلاق. فكانت مؤخرة البندقية ترفس كتفه عند إطلاقها وتقلبه على ظهره إذا كـان مقرفصـاً.. بكـى بعـد رصاصته الأولى وشعر بأن كتفه قد خُلعت وصوت الإطلاقة صم أذنيه.. فأنبه والده لذلك (لأن الرجال لا يبكون) ثم صنع له بندقية من خشب لكنه كان يريد بندقية تطلق الرصاص يصيد بها الطيور والغزلان ويبعد الذئاب المغيرة على أغنامه ويتحداها بكتفه فأهداه والده ما أراد بعد أشـهر.. حيـث راح يرعـى الأغنام بمفرده.. واختفى والده مرة أخرى كي يحارب السوفيتيين هذه المـرة، وأعادت النساء تنظيف الملاجئ التي تحولت بعد رحيل الإنكليز إلى مخـازن للأشياء القديمة ولعلف الحيوانات أو بيوتاً للدجاج.. غاب والده لأعوام طويلـة كان جلال أثناءها يكبر ويحل محله بسيادة البيت ورعاية أمه وشقيقتيه والأغنام ويزداد دقة في إصابة الأهداف ببندقيته التي صارت لا تنفصل عنه حتى فـي نومه فيما راح مع أمه يؤثث البيت ويزينه مثل بقية أهالي القريـة بمخلفـات الأسلحة. في زوايا غرفة الضيوف تقف الأغلفة الأسطوانية الفارغـة لقـذائف المدافع والدبابات بلونها النحاسي وفيها باقات من الورد صـنعتها أمـه مـن الصوف ولونتها بعصير النباتات، وعلى الجدار، في الواجهة، صاروخان لـم ينفجرا لقاذفة آر بي جي يحيطان بسيف الجد ودرعه على شـكل يـد بثلاثـة أصابع تحمل صورة بالأسود والأبيض لوالده حاملاً على صـدره شـريطين متقاطعين من أحزمة الرصاص، وخلف الباب علقوا حقيبة عسكرية ليضع فيها الضيوف حاجياتهم قبل النوم فيما فرشوا من بوابة الحوش إلى باب الدار سرفة

دبابـــة لتكون جسراً للعبور عليها وسط طين الفناء أيام المطر. وفي منتصف الغرفة أوقفوا سبطانة مدفع غليظة بمثابة عمود يحمل السقف وفي الوقت نفسه مدخـــنة لموقد الجمر.. لقد كبر جلال وبزغ أول الزغب في شاربيه ولم يرجع والـــده فـــيما لـــم ينقطع قصف الطائرات السوفيتية للجبال المجاورة وعبورها مخترقة ليالي القرية بالدوي والقذائف أحياناً فكان لذلك الفضل في عشقه لبنت الجيران فاطمة حيث دخلت مع أخوتها راكضة في ليلة حالكة والملجأ بلا قنديل فجلســـت في حضنه.. شعرها على وجهه ومؤخرتها على فخذيه، نسي لحظتها القصف ووالده وتدافُع الآخرين حوله وهو ينتبه إلى شساعة الفرق بين طراوة مؤخـــرة فاطمة وصلابة مؤخرة البندقية ومع ذلك يشتهيهما بالقوة نفسها، لكن فاطمة تململت سريعاً في محاولة منها للجلوس على الأرض فأعانها على ذلك بـــأن رفعهـــا من خاصرتيها قابضاً على أعلى مؤخرتها شاعراً برعشة عذبة نصبت ما بين فخذيه مفتوناً بملمسها وسارعت من دقات قلبه، تماماً كما حدث لـــه عند أول رصاصة أطلقها. وبعد أن جلست ملتصقة به وفخذها فوق فخذه لضـــيق المكان سألها هامساً: هل أنت وأخوتك بخير يا فاطمة؟ فجفلت وأجابت بارتـــباك: أوه.. نعم. تململت لكنها لم تغير من جلستها.. بل راحت في الليالي اللاحقـــة تـــتعمد الجلوس جواره وشيئاً فشيئاً أخذ كفيهما يتشابكان وتتسلل كفه الأخرى إلى خصرها وإلى نهديها وصارا ينتظران مرور الطائرات في سماء القـــرية كل ليلة وفي الصباحات ينظران إلى بعضهما خلسة من وراء الحائط الذي يفصل بين بيتيهما ويتعمد هو أخذ أغنامه كي تشرب من عين الماء التي تذهـــب إليها فاطمة لغسل الثياب.. وهكذا بقيا لأعوام على علاقتهما سراً حتى انســـحب الجيش السوفيتي وتوقف القصف ومرور الطائرات، وعادت الملاجئ لتصـــبح مخازنـــاً للأشياء القديمة ولعلف الحيوانات أو بيوتاً للدجاج ولم يرجع

والــده. حكم الطالبان البلاد وكبرت فاطمة فوضعت البرقع ولم يعد ير وجهها فقــرر الزواج منها. حدث والدته بالأمر ففرحت وحدثت والدة فاطمة ففرحت وقررا أن يكون العرس في الصيف القادم فكان جلال وفاطمة يحصيان الليالي بانــتظار لــيلة عرســهما لذا لم يؤجلاه على الرغم من اجتياح قوات التحالف لأفغانســتان محيلة البلاد إلى جحيم لإزاحة حكم الطالبان عنها، فكان عرسهما مناسبة لفرح القرية ونسيان الحرب قليلاً.. لذا اجتمع كل أهل القرية في الساحة الكبــيرة خلــف بيــته وارتــدوا أنظف ثيابهم وتعطروا بمساحيق الأعشاب والــورود، أوقدوا الفوانيس في كل محيط دائرة الساحة ثم أضرموا ناراً كبيرة في المنتصف وراحوا يدبكون حولها على إيقاع الطبول والمزامير.. وفيما كان الأطفــال يلعــبون بجذل حول دائرة الراقصين، والصبية ينظرون إلى البنات ويبتسمون، كانت النساء تقذف حفنات قطع الحلوى عالياً فوق رؤوس الأطفال فيــتلامع ورقها الملون على نور النار ويطلق الرجال كالعادة رصاص بنادقهم إلــى السماء فيخترق قطع الحلوى وترافقها زغاريد الأمهات، حامت طائرتان أمريكيــتان بي٥٢ وسي١٣٠ مرتين فوقهم ثم عادتا ثالثة ورمتا قنابلهما عليهم فقتلــت أربعيــن مــن بينهم العروسين جلال وفاطمة، وجرحت ١٢٠ آخرين أكــثرهم مــن النســاء والأطفال الذين اصطبغت قطع الحلوى التي في أكفهم بدمــائهم دون أن يــتركوها.. وفي الصباح قال العقيد الأمريكي روجيه كينغ لصــحافة العالم:" لست أدري ما كان يجري في هذه القرية.. كل ما أعرفه أن أشخاصاً كانوا يطلقون النار".. ويقذفون طائراتنا بحفنات لامعة.

أنا وأنت والناقة مسعودة في عاصفة الصحراء

هـــأنذا حـــرّ أخيراً. بلغت في الأمس الثانية والأربعين من عمري واحتفلت وحـــدي بذلك ليلاً حيث أعيش الآن آمناً في قرية شمال كندا يغطيها الثلج على مدار العام، صحراء من الثلج المنجمد بعد أن أمضيت أعواماً في صحراء من الـــرمل الملتهـــب، جندياً في الجيش العراقي، سبعة أشهر في الكويت وبعدها ســـنين مـــن الأســـر في مخيم رفحاء السعودي، منحوني منه اللجوء وأقلوني بطائـــرة إلى هنا.. من صحراء الرمل إلى صحراء الثلج. دائماً كان الآخرون هم الذين يتحكمون بي ويقررون مصيري، منذ البداية، منذ أوامر أبي وأوامر المعلـــم ثم أوامر الحكومة والجيش والأمم المتحدة.. لكنني الآن حرّ في قريتي الكندية، منحوني بيتاً ومصروفاً وتأميناً صحياً وعلموني الإنكليزية والكمبيوتر والإبحـــار في الانترنيت حيث أمضي معظم الوقت وحيداً أتنقل بين الشاشتين: الـــتلفزيون والكمبـــيوتر، وتصلني الصحف مجاناً. أنا حر أخيراً وإن كنت لا أدري ماذا أفعل بحريتي، لكن الحرية كانت حلمي طوال العمر الفائت وها هي ملكـــي، فألجأ لاجترار الذكريات وتمطيط الأحلام بانتظار شيء ما، وهي عادة تعلمتها منذ أيام السجن في العراق ثم الخفارات الطويلة في الجيش أثناء حربيّ الخلـــيج (الأولـــى والثانـــية) وأعوام الأسر في معسكر رفحاء. ولكن كلما مر بســـمعي أو بعينـــيّ ذكـــر حرب الخليج الثانية أو (عاصفة الصحراء) تذكرت دمـــوع الناقة مسعودة واختزلت كل ذكرياتي عن الحرب بصورتها جالسة أمام أشـــلاء ولدهـــا رافضـــة الأكـــل على مدى ثلاثة أيام، ثم هديرها وسط هدير الهجـــوم. هناك في رمال صحراء شبه الجزيرة العربية، كنا جنوداً نجاهد من أجـــل البقاء وسط تهديدات جيوش التحالف أمامنا ولجان الإعدام خلفنا والسماء

المكــتظة بالطائــرات فوقنا والصحراء الحارقة تحتنا أو نحن الذين تحتها في خــنادق هــي مدافن متحركة لنا ولدباباتنا ومدافعنا، علينا أن ننام فيها بأعين مفــتوحة وأكــثر مــن جــندي خفر كي لا ينهار علينا الرمل ونحن نيام، أما العقارب والأفاعي واليرابيع فهي أقل تهديداً من كل ذلك. قيل بأن دول التحالف أكــثر مــن ثلاثيــن وجيوشها هنا هي خلاصة قوة العالم مجهزة بآخر وسائل التقنــية الحديثة والأسلحة المتطورة، لذا قال لنا ضابط التوجيه السياسي: علينا ألا نخاف وسوف نحاربهم بقوة رجولتنا والسحر حيث سيتمكن الراعي منا من أن يرى طائرة الشبح بعينيه ويلوحها بعصاه. دون أن يفسر لنا كيف سيتم ذلك، وراحــت إذاعــة بغداد تقصف الأعداء بسيل من الشتائم التي يطلقها الشعراء الشــعبيّون في قصائدهم، ووزعت علينا قيادة الفرقة أزواجاً من الحمام الزاجل والجِمــال لكي تكون وسائط لنقل البريد والأوامر بين وحداتنا باعتبارها أفضل وســيلة تحتمل هذه الصحراء وأكثرها أماناً؛ حيث يستحيل على أجهزة الأعداء الحديــثة وأقمــار تجسسهم الصناعية كشف رسائلنا وشفراتنا، وكان نصيب ســريتنا زوج حمــام زاجــل وناقة مع حوارها (ابنها) أسماهما معتمد البريد وعــريف القلم، مسعودة وسعيد، فيما أطلقا على زوج الحمام اسمي (أنا وأنت) الذكــر أنــا والأنثى أنت. وكل فرد في وحدتنا كان يتمنى لو أنه أحد زوجي الحمــام أنــا أو أنــت كي يهرب بعيداً.. بعيداً، يلقي برسائل الحرب في موج الخليج ويطير إلى خارج الحدود.. بعيداً عن الجيوش المتقابلة في الصحراء.. بعيداً إلى آفاق بلا حدود.

طعامنا كتل الخبز الجاف والتمر، لذا أصابنا الإسهال فكان التمر يخرج من بطوننا دبساً أسود مخلوطاً بدم الأمعاء فيترك على رمل الصحراء خيوطاً تشبه علامات الاستفهام، لذا فكر البعض بأكل زوج الحمام عقوبة لهما على عودتهما

بالرســـائل المثقلة بالأوامر العسكرية. كان كل شيء بحساب، لتران من الماء وحفـــنة تمـــر وعشر سجائر لكل جندي، لذا كان المدخنون منا يحملون معهم الاحتياط من أكياس التبغ، يتسلون بلف سجائرهم أثناء الخفارات وعند الانبطاح طويلاً خلف تلال المراصد.. قيل فيما بعد بأن الاستخبارات العدوة قد التقطت لـــنا الكثير من الصور ونحن نخرج ألسنتنا لها فكانت حائرة من ذلك وخائفة، معـــتقدة بقوة معنوياتنا وأننا نسخر منها، فيما الحقيقة هي أننا كنا نبلل ونلصق أطـــراف أوراق سجائر اللف الرقيقة بأطراف ألسنتنا، كما قيل بأنهم قد حاروا وعجـــزوا بكـــل قوتهم الاستخبارية من تحليل جهاز كان يحمله جنودنا معهم ويبـــتعدون به ليلاً أو نهاراً ثم يغوصون في الرمال لفترة معه وبعدها يطلعون عائدين به إلى مواضعهم. الجهاز صغير له مقبض واحد وهوائي قصير ورقبة شـــبيهة بالجرة، وأن صور الأقمار الصناعية والأشعة فوق البنفسجية المرسلة إلـــيه كي تحلله لا تكشف شيئاً من تكوينه.. ولم يكن هذا الجهاز إلا إبريق من البلاستك نحمل فيه الماء حين نبتعد عن ملاجئنا للتغوط.

وذات لـــيلة قصف سقطت قذيفة على الحوار سعيد فنثرت أشلاءه. فرحنا بذلك لحظـــتها حيـــث سنشوي اللحم صباحاً عندما يخف القصف مثلما سيخف بريد رســـائل الأوامر بفقد إحدى الوسائط، ولكننا حين خرجنا من خنادقنا مع الفجر وجدنا الناقة مسعودة جاثية أمام أوصال ولدها والدمع يجري من عينيها كأبناء آدم تماماً.. عندها نسينا جميعاً شهوتنا إلى اللحم المشوي ورحنا نجمع أوصال سعيد أمام أمه محاولين إعادة تشكيل هيئته قدر الإمكان ثم غادرنا إلى واجباتنا وبقيـــت هي على جلستها حتى اليوم الثاني فقررنا دفن بقايا سعيد، لذا أوقفني الضـــابط أمام وجهها كي لا ترى الدفن، فرحتُ أجفف عينيها بأكمام قميصي، أربـــت على رأسها وأداعب رقبتها ماسحاً بحنان، فكانت تحني هامتها ويزداد

انهمـــار الدمــع مـــن عينيها على جزمتي، لحظتها فكرت بأمي لو أن القذيفة القادمـــة ستكون من نصيبي، لذا قرفصت أمام رأس مسعودة واحتضنته باكياً بصمت كي لا يراني بقية الجنود الذين انتهوا من دفن سعيد فقالوا دعها الآن.. وابتعدنا فرأيناها تزحف دون أن تنهض حتى وصلت إلى قبره وشرعت بتشمم الـــرمل واستنشـــاقه.. ســـاد الحزن علينا جميعاً لثلاثة أيام كانت فيها مسعودة تـــرفض كـــل مـــا نقدمه لها من طعام وماء، كما لم يجرؤ معتمد البريد على استخدامها واكتفى برسائل زوج الحمام. في اليوم الرابع اشتد القصف علينا من مدافع الأرض وبوارج البحر وطائرات السماء حيث بدأ هجوم التحالف مطراً من القذائف والنار، فرحنا نلوذ ذعراً متفرقين وسط الأودية والخنادق والكثبان مبتعديـــن عن أسلحتنا من دبابات ومدافع وراجمات صواريخ لأنها كانت هدفاً أكيداً لأول هجوم التحالف. كنا نراها تتفجر حولنا وتحلق شظاياها في الفضاء وســـط اللهـــب والدخـــان والـــرمل وعروق الشوك والصبار ورؤوس الجنود القريبين منها. مطر من القذائف، رعود قاصفة، دوي وانفجارات وهدير حديد. قصـــف. وكـــان آخر ما رأيت في مواضعنا مسعودة تزحف فوق مدفن سعيد وتغطيه ببطنها، تصك أسنانها، يشتد رُغائها وتهدر بالشقشقة. قصف، قصف، قصـــف، فتفرقـــنا في كل الاتجاهات، كل منا يتوقع موته بعد لحظة، لذا كان يســـتغفر الله عما ارتكبه في الإجازات مردداً الشهادة بوحدانيته ومتذكراً على عجـــل صور الأهل والأحبة، تالياً ما يحفظه من آيات القرآن التي يعتقد بأنها ستحفظه دون أن يكف بحثه عن الخلاص، بعضنا انسحب إلى الخلف، بعضنا غاب على الجانبين.. تاه في الجهات، فيما تقدم البعض الآخر إلى الأمام ، وأنا منهم، حاملين بأيدينا مناديل بيضاء أو ورق أبيض لمن ليس لديه منديل، مثلي، حيـــث رفعـــت عالياً آخر رسالة من أمي.. وأسروني. ضربني جندي عربي

ملتحـــي بـــأخمص بندقيـــته على صدري فسقطت وقيدني، فتقدمت إليّ جندية شـــقراء ســـقتني الماء ثم رفعتني إلى الناقلة فنقلوني إلى معسكر رفحاء حيث بقيـــت لأعـــوام هـــناك ثم نقلوني بعدها بالطائرة إلى هنا.. إلى قريتي الكندية البيضـــاء. متخـــيلاً بأن زوج الحمام (أنا وأنت) قد نال حريته أيضاً ولجأ إلى أرض آمنة، لذا ربما يكون مع حشد هذا الحمام الذي أراه من نافذتي في ساحة القـــرية، أو ربمـــا يكـــون الآن مع أسراب حمام ساحات روما أو حمام ساحة (بوابـــة الشمس) وسط مدريد أو يذرق على هامة تمثال الحرية في نيويورك.. ولكن أين هي الآن الناقة مسعودة؟.

مراجع ومصادر:

- القرآن الكريم.
- أساطير من بلاد ما بين النهرين، ستيفاني دالي.
- تاريخ القصف، سفن لندكفيست.
- لسان العرب، ابن منظور.
- المنجد في اللغة والأعلام.
- موسوعة دار إسباسا Espasa الإسبانية.
- دابادا، رواية؛ حسن مطلك.
- تقرير إلى غريكو، مذكرات؛ نيقوس كازانتزاكي.
- جريدة(بيان الكتب) الإماراتية، العدد ١٧٧.
- عدد من دواوين الشعراء العراقيين والأسبان.
- إنترنيت.

الكاتب في سطور:

• **محســن الرملــي** كاتب عراقي، عايش الحرب، ويقيم حالياً في إسـبانيا، حازت روايته **(الفَتيت المُبعثَر)** على جائزة أركنسا الأمريكية باعتبارها أفضل عمل أدبي عربي مترجم إلى الإنكليزية لعام ٢٠٠٢، إضـافة إلى إصداراته العديدة في مجالات القصة والمسرح والترجمة، منها: **هديـة القرن القادم** (١٩٩٥)، **البحث عن قلب حي** (١٩٩٧)، **أوراق بعيدة عن دجلة** (١٩٩٨).. وغيرها.